

التصوف في ميزان النقل والعقل

د. إبراهيم محمد البريكان

التصـــوف فـــي ميـــزان النقـــل والعقـــل

د.إبراهيم بن محمد البريكان
أستاذ مادة التيارات والمذاهب المعاصرة
بكلية المعلمين بالدمام

المقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن دعى بدعوته إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله الحق المبين، وأشهد أن محمداً رسول رب العالمين، ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد ،،

فإن الناس انقسموا في الصوفية على ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : تركت الصوفية وعلومها وذمتها بعجرها وبجرها ولم تستفد من كلامهم الموافق للكتاب والسنة مما يتعلق بآداب الإسلام الظاهرة والباطنة. قال ابن القيم رحمه الله عن هذه الطائفة (حجبت عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساؤا الظن بهم مطلقاً وهذا عدوان واسراف فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها)[1] أ.هـ كلامه رحمه الله وغالب من

(١) مدارج السالكين (٢/٣٩) .

ألف في التصوف في عصرنا هو من هذا النوع من الناس حتى أخذ منهم الاجحاف مأخذه فسبوا من نسب لهؤلاء من رجالات السلف الصالح.

والطائفة الثانية: أقبلت على علوم الصوفية بلا تمييز فأفاضوا بالمدائح على الصوفية واستماتوا في الدفاع عنها وقبلوا منهم كل قول حقاً كان أو باطلًا .

قال ابن القيم رحمه الله في وصف هذه الطائفة: (حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملتهم عن رؤية شطحاتهم ونقصانها فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في لوكهم وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون)[1]أ.هـ كلامه رحمه الله .

وهم أيضاً كثيرون في زماننا قد دعاهم هذا للتزيِّي بزي التصوف والدفاع عنه بلا حكمة ولا بصيرة وعذرهم هو اقتران التصوف الحديث بالبدعة .

والطائفة الثالثة: سلكت طريق العدالة فقبلوا منهم ما عندهم من الحق وردوا ما عندهم من الباطل مهتدين في ذلك بهدى الكتاب والسنة وهؤلاء يقول عنهم ابن القيم رحمه الله: (وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد)[2]أ.هـ كلامه رحمه الله. وهم قليلون في زماننا .

لذا أردت أن أكتب بحثاً متوسط الحجم بين الطويل الممل والمختصر

(١) مدارج السالكين (٢/٤٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢/٤٠) .

المخل مما تغمط بسببه العبارة وتدق الإشارة . أتوخى فيه العدل في الحكم على أقوالهم ورجالهم متخذاً من كتاب الله وسنة رسوله ميزاناً للحق إذ هو الإمام الذي يجب الاقتداء والاهتداء به دون سواه كما قال سبحانه : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ ﴾(٣) وأرجو أن أكون فيما كتبت موفقاً للصواب إن شاء الله وهذا أوان البدء في المقصود بإذن الله الإله المعبود فأقول وبالله التوفيق وأسأله السداد لأقوم الطريق .

التصوف في لغة العرب :

لم تعرف العرب التصوف بمعناه الاصطلاحي عند الصوفية بل ولم تستعمل مادة تصوّف على وزن تفعّل وإنما تكلمت العرب عن الصوف من مادة صَوَف بفتح الصاد والواو وهو للضأن من الغنم كالشعر للماعز وجمع الصوف أصواف على وزن أفعال وقد يطلق الصوف على الجمع تسمية للجمع باسم المفرد والأسماء منه أصواف وصوف بفتح الصاد وكسر الواو اسم للكبش كثير الصوف ويقال بمعناه صائف وصافٌ وصافٍ وصوفاني والأنثى منه صافة وصوفانه .

(الصوفة كل من ولي شيئاً من عمل البيت) أي الكعبة .

(وصاف عني شره يصوف صوفاً : عدل) .

---

(١) سورة النساء، آية (٥٩) .

(٢) سورة المائدة، آية (٨) .

(٣) سورة المائدة، آية (٤٨) .

(وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف عدل عنه) .

(وهو مذكور في الياء أيضاً لأنها كلمة واوية يائية) .

(ومنه صاف عني شر فلان وأصافه الله عن شره)[١] .

وبذا يعلم أن لفظ تصوّف ليس لفظاً عربياً لا من جهة وزنه اللفظي ولا من جهة معناه الاصطلاحي .

التصوف في الكتاب والسنة :

لم ترد كلمة التصوف لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ بل الوارد فيهما هي كلمة الصوف كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٢] ولم أظفر بما يدل على وجود لفظ الصوف في السنة والله أعلم .

التصوف عند السلف :

لا يوجد فيما راجعناه من كلام السلف الصالح ما يدل على استعمال كلمة تصوّف لا في حال المدح ولا في حال الذم مما يدل على أن هذا اللفظ لم يكن معروف الاستعمال بينهم ولم ينص أحد من العلماء فيما وصل إليه علمنا أن هذا اللفظ عرف ممدوحاً أو مذموماً بينهم وبما يعلم أنه لا سند للتصوف لا من جهة اللغة العربية ولا من جهة الكتاب والسنة ولا من جهة استعمال السلف مما يدل دلالة قاطعة على أن هذا اللفظ حادث فلا يحكم على مطلقه بمدح أو ذم وإن كنا نقول إن استعماله في جهتي المدح أو الذم بدعة شرعية لكن بعد الاصطلاح عليه يجب الاستفصال عن مفهوم من

---

(١) انظر لسان العرب (٢٨/٢٥٢٧/٢٥٢٨) دار المعارف . انظر كتاب الأفعال . عالم الكتب (٢٥٨/٢، ٢٥٩) .

(٢) سورة النحل آية (٨٠) .

أطلقه حتى يحكم على المراد به بحسب ماتقتضيه الأدلة الشرعية ومن ثم يلفت نظره إلى استعمال اللفظ المتعين الدلالة على ما أراد سواء كان حقاً أو باطلاً أسوة بسائر الألفاظ التي اصطلح المتأخرون على اطلاقها[1] .

تعريف التصوف اصطلاحاً :

في المعجم الوسيط : (طريقة سلوكية قوامها التقشف والتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح وأعلى مراتبه الفناء)[2] .

وفي التعريفات : (الوقوف على الآداب الشرعية ظاهراً فيرى حكمها من الظاهر في الباطن وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال) .

ثم قال : (التصوف : مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل وقيل تصفية القلب عن موافقه البرية ومقارفة الطبعية وإخماد وصفات البشرية ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازل الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ماهو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع رسوله ﷺ في الشريعة) .

وقيل : ترك الاختيار، وقيل بذل المجهود والأنس بالمعبود، وقيل حفظ حواسك مع مراعاة أنفاسك .

وقيل : (الإعراض عن الإعتراض، وقيل : هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله التفرغ عن الدنيا وقيل : الصبر تحت الأمر والنهي وقيل : خدمة

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (١/٢٢٩/٢٤٠) انظر مجموع الفتاوى (١١/٢٨) .
(٢) المعجم الوسيط (١/٥٣١) .

التشرف وترك التكلف واستعمال التطرف، وقيل: الأخذ بالحقائق والكلام بالدقائق والإياس مما في أيد الخلائق)[١] .

وعلى هذا فكل من انتسب إلى التصوف سمي صوفياً[٢] على غير قياس قال في المعجم الوسيط (تصوف) فلان صار من الصوفية[٣] .

تعريف علم التصوف :

قال في المعجم الوسيط : (علم التصوف مجموعة المباديء التي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم)[٣] .

والصوفي عندهم كما قال بعضهم من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر .

وهم يجعلون معنى الصوفي هو معنى الصديق[٤] وفيه من تزكية النفس ماهو ظاهر قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[٥]. وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[٦][٧] .

مصدر التسمية بالتصوف والصوفية :

ولما لم يكن هذا اللفظ معروفاً بين السلف الصالح ولا سيما في القرون

---

(١) التعريفات للجرجاني ص(٥٩ ، ٦٠) دار الكتب العلمية .

(٢) المعجم الفلسفي ص(١٠٨) مجمع اللغة العربية .

(٣) المعجم الوسيط (١/٥٣١) مجمع اللغة العربية قارن الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(٢٢) .

(٤) انظر الصوفية والفقراء لابن تيمية (٢٢) .

(٥) سورة النجم آية (٣٢) .

(٦) سورة النساء آية (٤٩) .

(٧) انظر مقدمة الصوفية والفقراء (٦) .

الثلاثة المفضلة وهي عصر الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله وتابعيهم بإحسان اختلف الناس في منشأ هذه التسمية ومصدرها الذي ترجع إليه ومم اشتقت وذلك على أقوال(١) :

القول الأول : أنها نسبة لأهل الصفة ، واعترض عليه بأنه لو كان كذلك لكانت النسبة اللغوية له صُفِّي بضم الصاد وتشديد الفاء مكسورة بعدها ياء النسبة .

القول الثاني : أنها نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله . ورد أن النسبة له لغة لو كان كذلك صَفِّي بفتح الصاد بعدها فاء مشددة مكسورة بعدها ياء النسب .

القول الثالث : أنها نسبة للصفوة من الخلق . وهو فاسد لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت النسبة إليه لغة صَفويّ بصاد وبعدها فاء مفتوحين بعدها واو مكسورة ثم ياء مشددة للنسبة .

القول الرابع : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ينسب إليهم النسّاك) قال ابن تيمية : (وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً ، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية ولا وجود لها في الإسلام) فتحصل من هذا أن هذا القول مردود من خمسة وجوه :

الوجه الأول : كونهم غير معروفين ولا مشهورين بين النساك .

---

(١) الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(١١ ، ١٢) مختصر الفتاوى المصرية (٥٦٧ ، ٥٦٨) .

الوجه الثاني : أنه لو كانت هذه النسبة مشهورة لكانت شهرتها في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان أولى من شهرتها فيمن بعدهم .

الوجه الثالث : أن من تسمى بهذا الاسم وهو الصوفية لا يعرف هذه القبيلة .

الوجه الرابع : أنه لو قدر وأن الصوفية سمعوا بها فإنهم لا يرتضون أن ينسبوا لاسم جاهلي لا وجود له في دين الإسلام .

الوجه الخامس : أنهم لو رضوا التسمي بهذا الاسم الجاهلي لما سلم لهم ولا قبل منهم لأنه نسبة إلى غير الإسلام والله جل وعلا يقول : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1] وبذا يعلم حرمة التسمي باسم لم يقره الإسلام أو يكون منه .

والقول الخامس : أنها نسبة إلى الصفة بتشديد الصاد مع كسرها وفتح الفاء بعدها . ومصدرها معنى هو الاتصاف بالصفات الجميلة الحسنة[2] وهو فاسد لأن النسبة اللغوية والحالة هذه وصفي بواو مفتوحة وسكون الصاد وكسر الفاء بعدها ياء النسب .

القول السادس :[3] يرى الكاتب النصراني جرجي زيدان أن كلمة صوفي هي : الكلمة اليونانية (سوفيا) بمعنى الحكمة وقد رد ذلك المستشرق (نولدكه) (إن سيجما اليوناني حرف يمثل في العصور المتأخرة بحرف السين العربي في جميع ما عرب من كلمات يونانية لا بحرف الصاد) كما فعل جرجي زيدان مما يدل على عدم علمه بهذا الأمر ورد هذا بأنا نقول : في

---

(١) سورة آل عمران آية (١٩) .
(٢) انظر الصوفية معتقداً ومسلكاً . صابر طعيمة .
(٣) أنواع الكشف عن حقيقة الصوفية (٧٤٠) .

فيلسوفيا فلسفة لا فلصفة ولو كان هذا صحيحاً لعرف ولانتشر لكن الأمر ليس كذلك فلا يعلمه من لا يعرف العربية فضلًا عن كفره .

القول السابع : (أنه مشتق من لبس الصوف وهو الذي رجحه ابن تيمية كما أنه موافق للفظ من جهة الاشتقاق اللغوي وصحيح النسبة إليه، ومما يدل على ذلك ما رواه أبو الشيخ الأصفهاني باسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف يقولون أنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم وهدى نبينا أحب إلينا وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاماً نحو هذا) وهذا يدل على أن صحة النسب لهذا المعنى لم يخرجه عن مخالفة الشريعة لمخالفته لهديه ﷺ في لباسه لعدم التزامه لبس الصوف، ونحن متعبدون باتباع هديه ﷺ لا باتباع هدي عيسى عليه السلام لأن هديه أكمل الهدى كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[1] .

نشأة التصوف وتاريخه:

١ ـ أول ما نقل التكلم بلفظ التصوف في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري تكلم به غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد وأبي سليمان الداراني وغيرهما كسفيان الثوري والحسن البصري[2] .

٢ ـ (وأول ما ظهرت الصوفية كسلوك عملي في البصرة) .

٣ ـ (وأول من بنى ديراً للصوفية بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد، وعبدالواحد من أصحاب الحسن البصري) وقد كان من أهل البصرة

---

(١) سورة الفتح آية (٢٨) .

(٢) انظر الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(١٢، ١٣) مختصر الفتاوى المصرية (٥٦٨) .

نوع مبالغة في الزهد والعبادة والخوف من الله لم يكن موجوداً نظيره في غالب البلاد الإسلامية ولهذا كانوا يقولون فقه كوفي وعبادة مصرية[١] .

٤ ـ وقد ظهر على هؤلاء من المبالغة أعني البصريين مالم يحك عن سواهم من الموت والإغماء عند سماع القرآن فقد روي أن زرار بن أد قاضي البصرة قرأ في صلاة الفجر (فإذا نقر في الناقور) فخر ميتاً .

وروي أن أبا جهير الأعمى منهم قرأ عليه صالح المري فمات مما لم يكن نظيره موجوداً عند الصحابة رضي الله عنهم .

ومن هنا أنكر من حضر هذه الأحوال من الصحابة والتابعين أحوالهم هذه كأسماء بنت أبي بكر وعبدالله بن الزبير ومحمد بن سيرين وغيرهم وكانت وجهة نظر المنكر عليهم من وجهين :

الأولى: أنه ظن أن ذلك تكلفاً منهم وتصنعاً فقد روي أن محمد بن سيرين قال ما بيننا وبينهم هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خر ميتاً فهو صادق .

الثانية: لأنه رأى أن ذلك بدعة في الدين لم تكن معروفة بين أصحاب المصطفى ﷺ ولا كان من هديه وهدي أصحابه بل كان هديهم البكاء عند سماع القرآن والخشوع وحضور الأسماع والقلوب[٢] .

والذي عليه جمهور أهل العلم أنه إذا كان ماورد على نفسه من السماع غالباً عليه بحيث لا يستطيع أن يرفضه فإنه والحالة هذه معذور ويدل عليه قول الإمام أحمد لما سئل عن هذا قال قريء القرآن على يحيى بن سعيد فغشي

---

(١) انظر الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(١٢ ، ١٣) مختصر الفتاوى المصرية (٥٦٨) .

(٢) انظر الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(١٣ ، ١٤) مختصر الفتاوى المصرية (٥٦٨ ، ٥٦٩) .

عليه وأحب أن يدفع عن نفسه ولو قدر عليه لدفعه فما رأيت أعقل منه ونقل مثل هذه الحال عن الشافعي والفضيل بن عياض .

إلا أن حال من يبكي ويخشع مع حضور القلب والوعي الذي هو حال الصحابة أفضل ولأن مثل هذه الأحوال ليست حالًا إيمانياً مطلقاً بل قد تحصل لبعض الناس ولو كانوا كفاراً أو فساقاً وذلك لقوة الوارد على القلب مع ضعفه كما يموت بعض الناس فرحاً أو حزناً أو عشقاً أو خوفاً ونحو ذلك ، وفصل القول في ذلك أن ذلك أمر مباح مادام سببه مباحاً لا تفريط فيه ولا عدوان فإنه والحالة هذه لا ذنب فيما أصابه وإنما حصل من ضعفه وقوة الوارد عليه فلا لوم عليه ولكنها ليست دلالة على الولاية ولا الصلاح لاستواء الناس في ورودها عليهم كما تقدم[1] .

٥ ـ والظاهر والله أعلم أن ظهور التصوف كان نتيجة ردة فعل على افراط المجتمع في ملذات الدنيا وشهواتها ولا يمنع هذا أنه استغل من طوائف الباطنية والقرامطة والمجوس من أعداء الإسلام حتى وصل إلى حالته الراهنة القائمة على الطرق والاشارات والرموز نتيجة لهذه المؤثرات الخارجية التي يراد بها القضاء على الإسلام وأهله والتي برزت أخيراً عندما شجع المستعمر الطرق الصوفية في سائر البلاد الإسلامية حتى تطفأ جذوة الجهاد في نفوس المسلمين ويعزل الإسلام عن الحياة العامة حتى يكون ديناً لاهوتياً علمانياً لا يحكم الحياة ولا يوجه المجتمع وعندئذ تكون الطامة الكبرى ولكن ذلك لن يحصل لأن في ديننا من القوة الذاتية الحركية ما يجعله يتجاوب وقوانين الحياة العامة والخاصة كما قال تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2] .

(١) انظر الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(١٣ ، ١٤) مختصر الفتاوى المصرية (٥٦٨ ، ٥٦٩) .
(٢) سورة الصف آية ٩ .

وقال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله»[(١)].

٦ ـ هذا ولم يكن التصوف في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع إلا نوعاً من الزهد والتقشف ولم نجد صفة الرسوم الصوفية التي جاءت فيما بعد ولم يكن فيهم من المعتقدات الفاسدة شيء البتة ولكن في القرن الرابع دخل في التصوف من أهل الزندقة والإلحاد من تلبس بلباس الصوفية كالحلاج وأمثاله مما أنكره أوائل علماء الصوفية كالجنيد ابن محمد وغيره[(٢)].

٧ ـ وفي أواخر القرن الرابع بدأت الصوفية تأخذ شكلها الحالي الطرقي فامتلأت الساحة الإسلامية بالمدارس الصوفية المتنوعة التي تتفق في كثير من مضامينها وتختلف في بعض طقوسها وأدعيتها[(٢)].

أسباب نشأة التصوف وانتشاره:

مما تقدم من حكاية التسلسل التاريخي الذي مر به التصوف تبين لنا أن نشأة التصوف وانتشاره يرجع لعاملين مهمين هما:

أولًا: البذخ الدنيوي والإسراف في الملذات والشهوات الجسدية والذي خرج عن حد الاعتدال الأمر الذي حدى ببعض من أنكرت نفوسهم هذا النوع من السلوك ولم يستطيعوا أن يقاوموا ذلك التيار الجارف أن يعتزلوا تلك المجتمعات ويفروا بأنفسهم متخذين لمسلك الزهد والتقليل من المباحات والحرص على أصناف التعبدات طريقاً سلوكياً لهم وقد

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) انظر الصوفية معتقداً ومسلكاً ص(٥٠، ٥٢) الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(٢٤).

استشفوا من بعض النصوص الشرعية دليلًا لهم على مسلكهم هذا كحديث (البذاذة من الإيمان) وحديث (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيراً ولخرجتم في الصعدات تجأرون) .

ثانياً : المؤثرات الخارجية عن طريق التأثر بأفكار الأمم الأخرى من يونان وهنود ويهود ونصارى وسواهم عن طريق من دخل في التصوف من فلاسفة وغيرهم .

وإن كان التصوف في أول أمره لم يكن كذلك ومن هذا المنطلق اختلف الباحثون في التصوف هل نشأته أمر طبيعي فيكون بسبب مؤثرات في داخل جسم الأمة كالمؤثر الأول أو بمؤثر خارجي أجنبي عن دين الأمة وثقافتها، ومال كل قوم إلى أحد المؤثرين إلا أن الدراسة الجادة تدل على اجتماع المؤثر الداخلي والخارجي في تكوين الفكر الصوفي على شكله الذي انتهى إليه وهو ما نميل إليه ونرجحه ومما يؤيد ذلك أن لعموم الفرق التي انشقت في جسم الأمة أو عنها يرى أنها تبدأ بمؤثرات سهلة غالباً مؤثرات داخلية نتيجة ردود فعل في المجتمع ثم بعد ذلك يزيد انحرافها عن طريق المؤثرات الخارجية والتي تجد في هذا الانحراف طريقاً لتثبيت أفكارها في نفوس هؤلاء المنحرفين[1] .

هذا ويمكن التماس عدة أسباب أخرى أثرت في انتشار الصوفية هي[2] :

أولًا: استعمال الخارق للعادة كطريق من طرق إثبات الولاية

---

(١) انظر الصوفية معتقداً ومسلكاً ص(١٢٥) الكشف عن حقيقة الصوفية ص(٧٥٧ ـ ٧٧١) انظر هذه الصوفية ص(١٦٨) .

(٢) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص(٤٢٣ ، ٦٤٧ ، ٧١٣ ، ٧٥٧ ، ٨٥٩) انظر الصوفية معتقداً ومسلكاً ص(٢٩٠ وما بعدها) ص(٣١٥) .

والصلاح مما يجذب العامة وكذا فقد كثر في رجال التصوف السحرة والدجالون والمشعوذون ومن يستعين بالجن والشياطين مما يجعل التصوف من أعظم الطرق لنشر الخرافة والوثنية بين المسلمين .

ثانياً : استعمالهم الرقص والغناء وغيرهما من المنكرات مما يغري كثيراً من الفساق بصحبتهم والانخراط في ماهم عليه من سلوكيات كصحبة المردان .

ثالثاً : استعمالهم الأساليب الباطنية من اخفاء الأسرار وعدم كشفها إلا لمن سلك طريقهم بدعوى أن غيرهم لا يمكنه استيعابها ولا فهمها بل ربما حملها مالا تحمل بحسب دعواهم .

رابعاً : التساهل في التمسك بالشرائع الإسلامية مما يغري المتساهلين والمحبين للهروب من سلطان الشريعة أن ينتسب إليهم حتى يهرب من عهدة التكليف بدعوى اهتمامهم بالباطن دون الظاهر والمعمول في الشريعة كما يدعون على الباطن فقط .

خامساً : خداعهم للعامة بلبس المرقعات واظهار الزهادة في الدنيا وملذاتها وادعاء الدعاوى العريضة في محبة الله والرضا بالقضاء والقدر والصبر على البلاء .

سادساً : الجانب الإعلامي الذي يقوم به الصوفية عن طريق الألقاب والألعاب المتنوعة على أنفسهم وسلوكيات مذهبهم .

أنواع الصوفية وأصنافهم :

ويمكن تقسيم الصوفية من حيث الاختلاف في موضوعات البحث إلى قسمين :

القسم الأول : أقسامهم من جهة العمل .

القسم الثاني: أقسامهم من جهة الاعتقاد .

أما من جهة العمل:

فقد قسمهم شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ثلاثة أقسام هي:[١]

أولًا: صوفية الحقائق: وهم الذين مقصود التصوف عندهم عبارة عن حقائق وأحوال وحدود وسيرة مستلزمة لصفاء الباطن من كدر الأمراض الباطنة وصفاء الظاهر بكثرة العبادات والزهد في الملذات والشهوات وهؤلاء إنما أطلق عليهم صوفية نسبة إلى لباس الصوف وإن كانت طريقتهم ليس لبسه قيداً فيها ولا هم جعلوا لبسه من أصول الطريقة التي سلكوها ولاأوصوا بلبسه ولا علقوا الصلاح الظاهر والباطن على ذلك كله .

ويرى الصوفية أن هؤلاء هم أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين وهو يساوي عندهم الصدّيق (وهو الذي اختص بالزهد والعبادة ولكن على الوجه الذي اجتهدوا فيه فهو أخص من الصدّيق المطلق ودون الصدّيق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم) فهم صدّيقوا زمانهم فصدّيقيتهم نسبية وهم في ذلك على درجات ومقامات .

وقد انقسم الناس في هؤلاء على ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى: ذمتهم واعتبرت ماهم عليه بدعة وأخرجوهم عن مسمى السنة المتضمنة لنبذ البدعة والتمسك بما جاء به الرسول ﷺ .

الطائفة الثانية: غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء .

الطائفة الثالثة: أنهم مجتهدون في طاعة الله كحال سائر المؤمنين فمنهم السابق في الخيرات المتقرب من الله بحسب اجتهاده في طاعة ربه ومنهم

(١) انظر الصوفية والفقراء لابن تيمية ص(٢٤ ، ٢٥) .

المقتصد المحافظ على الواجبات وترك المحظورات وإن قصر في المحافظة على المسنونات وترك المكروهات .

ومنهم العاصي المجتريء على بعض المعاصي فهو ظالم لنفسه .

وهذا لا ينفي حصول الخطأ من السابق والمقتصد إذ كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فمنهم من يخطيء ويتوب ومنهم من ليس كذلك .

ثانياً : من أقسام الصوفية صوفية الأرزاق وهم الذين تركوا البحث عن الرزق والعمل لكسب المعاش واكتفوا بما يجود به الناس عليهم من الصدقات والأوقاف الخيرية وهؤلاء لا يشترط فيهم أن يكونوا من أصحاب الحقائق لعزَّة ذلك وقلته لأن أرباب الحقائق لا يتكففون الناس ولا يعيشون على صدقاتهم ويشترط فيمن كان من صوفية الأرزاق ثلاثة شروط :

الشرط الأول: العدالة الشرعية وذلك بفعل الفرائض واجتناب المحرمات والمحافظة على خلق المروءة فلا يفعل ما يستنكر عادة .

الشرط الثاني: التأدب بآداب الطريق الشرعية فيبتعد عن البدع في الدين .

الشرط الثالث : البعد عن فضول الدنيا من جمع الأموال وتكديسها في طلب التكاثر من متاعها .

فإن خالف شرطاً لم يستحق شيئاً من الوقف .

القسم الثالث : صوفية الرسم وهم من اقتصر على نسبته إلى الصوفية وتزيا بزيهم من لبس الصوف والمرقعات لكنه لم يلتزم شيئاً من طريقتهم ولم يتقيد بشيوخهم في الأعمال الظاهرة والباطنة فهو يتمتم بأقوالهم ولا يلتزم أعمالهم فمن شاهد حالهم ظنهم من الصوفية وهم في الحقيقة ليسوا منهم

فليس عندهم من التصوف إلا النسبة إليه ولبسته الظاهرة وإلا فإن حقيقتهم أنهم ليسوا منهم .

والظاهر مما تقدم من بيان أنواع الصوفية وأحكامهم عند ابن تيمية إنما جرى عليه رحمه الله بعد اشتهار هذا الاسم عليهم بحيث صار حقيقة عرفية فكان لابد من التفصيل في أحكامهم وبيان ما صح منها مما لا يصح لأن اسم التصوف لم يرد الشرع بمدحه ولا ذمه ولا التسمية به وعلى هذا فهو لفظ تسمى به بمدح أو ذم بل لابد من تمييز ما دخله من حق أو باطل هذا ويرى الفخر الرازي للصوفية تقسيماً آخر فقد قسمهم على ستة أقسام وهي[1] :

١ ـ أصحاب العادات وهم مساوون لأهل الرسم عند ابن تيمية .

٢ ـ أصحاب العبادات وهم الزهاد في الدنيا والمنقطعون للعبادة فهم معتنون بالظواهر دون البواطن .

٣ ـ أصحاب الحقيقة وهم الذين جمعوا بين الاهتمام بالعبادات والباطن وهو تخلية النفس عن أدرانها الباطنة وتحريرها عن كل ما يشغلها عن ذكر الله والتفكر في الكون .

٤ ـ النورية وهم القائلون بأن ما يحجب عن الله حجابان :

الأول : منها نوري وهو الاشتغال بإصلاح النفس واكتسابها للأخلاق الفاضلة .

والثاني : ناري وهو الاشتغال بما يذم من صوارف النفس كالشهوة والغضب والحرص والأمل .

٥ ـ الحلولية : وهم مدعوا الحلول والاتحاد بينهم وبين الباري جل وعلا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

---

(١) انظر الصوفية معتقداً ومسلكاً ص(٣٩) .

٦ ـ المباحية: وهم مدعوا رفع التكاليف عنهم لبلوغهم المرتبة العظمى في المحبة .

ويرجع هذه التقسيم إلى أمرين:

أحدهما: عملي كأصحاب العبادات والحقيقية والنورية .

الثاني: عقدي وهم الحلولية والمباحية .

قال ابن القيم: (وقد قسم الصوفية بعضهم أربعة أقسام أصحاب السوابق وأصحاب العواقب وأصحاب الوقت وأصحاب الحق .

فأما أصحاب السوابق: فقلوبهم أبداً فيما سبق لهم من الله لعلمهم أن الحكم الأزلي لا يتغير باكتساب العبد .. فهم يجدّون في القيام بالأوامر واجتناب النواهي والتقرب إلى الله بأنواع القرب غير واثقين بها ولا ملتفتين إليها ...

وأما أصحاب العواقب: فهم متفكرون فيما يختم به أمرهم فإن الأمور بأواخرها والأعمال بخواتيمها والعاقبة مستورة ...

وأما أصحاب الوقت: فلم يشتغلوا بالسوابق ولا بالعواقب بل اشتغلوا بمراعاة الوقت ومايلزمهم من أحكامه ..

وأما أصحاب الحق: (فهم مع صاحب الوقت والزمان ومالكهما ومدبرهما مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات لا يتفرغون لمراعاة وقت ولا زمان)[1] وهذا التقسم باعتبار أحوال السالكين في العبادة .

وأما من جهة الاعتقاد: فيرى ابن تيمية أن الصوفية على ثلاثة أقسام هي:

---

(١) انظر مدارج السالكين (١٣٠/٣٠، ١٣١) .

أولًا : السلفية : وهم كبار شيوخ الصوفية كالجنيد بن محمد والفضيل ابن عياض ونحوهما .

قال ابن تيمية : (والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف)[1] .

وقال في موضع آخر : (قلت هذا كلام صحيح فإن كلام أئمة المشايخ الذين لهم في الأمة قدم صدق كانوا على ما عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل)[2] .

تعليقاً على قول القشيري : (اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد وصانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة في التوحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل)[3] .

وقد نقل عنهم بالأسانيد المتصلة ما يدل على حقيقة ما قرره من ذلك .

قال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله : (العمل بلا اقتداء عيش النفس والعلم بالاقتداء عذاب على النفس)[3] وقال : (كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل)[4] .

وقال الجنيد بن محمد : (من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدىٰ به في هذا الشأن لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)[3] وقال أحمد بن أبي الحواري: (من عمل عملًا بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله)[3] .

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (١/٨٢) .

(٢) الاستقامة لابن تيمية (١/٩٠ ، ٩١)

(٣) الاستقامة لابن تيمية (٢/١٤١) .

(٤) الاستقامة لابن تيمية (١/٩٠ ، ٩٧) .

قال أبو سليمان الداراني: (ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة)[١] .

وقال أبو حفص النيسابوري: (من لم يزن أفعاله وأقواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعتد في ديوان الرجال)[٢] .

وقال أبو عثمان: (من أمرّ السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة[٢] قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[٣]

وقال أبو بكر صاحب الفضيل: سمعت الفضيل بن عياض يقول: (ليس لنا أن نتوهم في الله كيف لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤] فلا صفة أبلغ مما وصف نفسه وكل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع: كما يشاء أن ينزل وكما يشاء أن يباهي وكما يشاء أن يضحك وكما يشاء أن يطلع فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف فإذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول من مكانه فقل بل أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء) .

وقال عمرو بن عثمان المكي: (من أعظم ما يوسوس به الشيطان في التوحيد بالتشكيك أو في صفات الرب بالتمثيل أو التشبيه أو بالجحد لها والتعطيل) ثم قال: (واعلم رحمك الله أن كل ما توهمه قلبك أو سنح في مجاري فكرك أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو ضياء أو اشراق أو جمال أو شبح ماثل أو شخص متمثل فالله بغير ذلك بل هو الله

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (١/ ٩٠، ٩٧).

(٢) الاستقامة (١/٩٥ ـ ٩٧) .

(٣) سورة النور آية ٥٤ .

(٤) سورة الإخلاص آية ١ .

تعالى أعظم وأجل وأكبر ألا تسمع قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[2] فإن اعتصمت بها وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب تعالى وتقدس في كتابه وسنة رسوله ﷺ فقال لك إذا كان موصوفاً بكذا وصفته بكذا أوجب له التشبيه فأكذبه لأن اللعين إنما يريد أن يستزلك ويغويك ويدخلك في صفوف الملحدين الزائغين الجاحدين لصفة رب العالمين)[3] .

وقال الإمام أبو عبدالله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات: (فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه قولًا واحداً وشرعاً ظاهراً وهم الذين نقلوا عن رسول الله ﷺ ذلك حتى قال: (فكانت كلمة الصحابة على الاتفاق من غير اختلاف وهم الذين أمرنا بالأخذ عنهم ولم يختلفوا بحمد الله تعالى في أحكام التوحيد وأصول الدين من الأسماء والصفات كما اختلفوا في الفروع ولو كان منهم في ذلك اختلاف لنقل إلينا كما نقل سائر الاختلاف فاستقر صحة ذلك عند خاصتهم وعامتهم حتى أدوا ذلك إلى التابعين لهم بإحسان فاستقر صحة ذلك عند العلماء المعروفين حتى نقلوا ذلك قرناً بعد قرن لأن الاختلاف كان عندهم في الأصل كفر ولله المنة)[4] .

وقد سأل أبا محمد عبدالقادر بن عبدالله الجيلي الشيخ علي بن إدريس فقال يا سيدي: هل كان لله وليّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل فقال: ماكان ولا يكون) .

(١) سورة الشورى الآية (١١) .

(٢) سورة الإخلاص الآية (٤) .

(٣) الرسالة الحموية لابن تيمية من النفائس ص(١٣٧/١٣٨) .

(٤) الرسالة الحموية لابن تيمية ـ ص(١٣٣ ، ١٣٤) .

ثانياً : الأشعرية وهم من سلكوا في الاعتقاد طريقة الأشاعرة المتضمنة التأويل والتحريف وعدم الإيمان بصفات الأفعال وجحد بعض الصفات الخبرية الذاتية كالوجه واليدين والعينين ونحوها من صفات كماله جل وعلا والقائلين بأن الله يتكلم بلا حروف ولا صوت وأن الحروف والأصوات ليست قديمة وأن المصحف الذي بين أيدي المسلمين ماهو إلا عبارة عن كلام الله وأن كلامه جل شأنه هو الكلام النفسي فقط وهم طبقة أبي القاسم القشيري وأصحابه وقد أخذ هذه العقيدة عن شيخه أبي بكر ابن فورك وشيخه أبي اسحاق الأشقرييني يقول ابن تيمية : (وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة لكنه مقصر عن ذلك ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه)[١] .

وقد أنكر هذا الاعتقاد أكابر مشايخ التصوف .

قال القشيري : (فأما المشايخ الذين عاصرناهم والذين أدركناهم وإن لم يتفق لنا لقياهم) ثم عدد جملة منهم ... ثم قال : (فإنَّ هؤلاء المشايخ مثل أبي العباس القصاب له من التصانيف المشهورة في السنة ومخالفة طريقة الكلابية والأشعرية ماليس هذا موضعه وكذلك سائر شيوخ المسلمين من المتقدمين والمتأخرين الذين لهم لسان صدق في الأمة)[٢] .

وقال أبو بكر بن قوام لحفيده محمد : (إذا بلغك عن أهل المكان الفلاني أن فيهم رجلًا مؤمناً أو رجلًا صالحاً فصدق وإذا بلغك أن فيهم ولي الله فلا تصدق فقلت أي محمد ولم يا سيدي قال لأنهم أشعرية)[٣] وقال عبدالله الأرميني لابنه إبراهيم وكان له معلم يقرؤه العقيدة الأشعرية كما أخبر قال له

(١) الاستقامة (١/٨٥، ٨٦) .

(٢) الاستقامة (١/٨٢) .

(٣) الاستقامة (١/٨٢ . ٨٤ . ٨٥ . ٨٨)

والده فقد طفت الأرض واجتمعت بكذا وكذا ولي لله فلم أجد أحداً منهم على هذا الاعتقاد)[1] أي الأشعرية وهو إخبار بأن أكثر مشايخ الصوفية على عقيدة السلف .

ثالثاً: الحلولية والاتحادية: وهما نسبة للحلول والاتحاد فالحلول أن تكون أحد الذاتين ظرفاً ووعاءاً للأخرى فإن حقيقة مذهبهم (أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى وليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة) وهم لا يرتضون اسم الحلول لأنه يتضمن ذاتين كل منهما غير الأخرى وهذا تشبيه عندهم وإثبات موجودين (أحدهما) وجود الحق الحال و (الثاني) وجود المخلوق المحل وهم لا يقرون إثبات وجودين البتة)[2] .

وهذا هو عين قول الجهمية الذين يقولون أن الله بذاته في كل مكان[2] وسموا اتحادية لأمرين:

أحدهما: وهو غير مرضي لهم لأن قولهم بالاتحاد على وزن الاقتران والاقتران يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر وهم لا يقرون بوجودين أبداً)[2] .

الثاني: يصححونه وهو أن الكثرة صارت وحدة .

وبذا يظهر أن مبنى قولهم (هو أن وجود المخلوقات والمصنوعات حتى وجود الجن والشياطين والفاسقين والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان عين وجود الرب لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته وان كان مخلوقاً له مربوباً مصنوعاً له قائماً به وهم يشهدون أن في كل الكائنات

---

(١) الاستقامة (١ / ٨٢ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ـ ٨٨).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٤/٩٤) .

تفرقاً وكثرة ظاهرة بالحس والعقل فاحتاجوا إلى جمع يزيل الكثرة ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها)[١] وهم في التعبير عن هذا ثلاثة أنواع:

النوع الأول: مقالة ابن عربي ومن نحا نحوه وتقوم على دعامتين:

الأولى: (أن المعدوم شيء ثابت في العدم)[١] (فهي متميزة بذواتها الثابتة في العدم متحدة بوجود الحق العالم بها)[٢].

الثانية: (أن وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه)[٢].

(وهذا يفرق بين المظاهر والظاهر والمجلي والمتجلي لأن المظاهر عنده هي الاعيان الثابتة في العدم وأما الظاهر فهو وجود الخلق)[٢].

ويرى ابن تيمية أن ابن عربي في ذلك متأثر بالمعتزلة والرافضة فإن أول من قال بأن المعدوم شيء ثابت في العدم هو أبو عثمان الشحام شيخ أبي على الجبائي وإن كان يقول بأن الله خلق وجود الأعيان وأنها ليست عين وجوده[٢] ومبنى قول ابن عربي أن الماهية عين الوجود وأن الماهية الموجودة في الذهن هي عين الموجود المشاهد وبناء على ذلك فإن الماهية التي بها الاشتراك في الذهن هي عين الموجود المشخص في الخارج فالوجود هو بصفة عامة للقديم والمحدث واسم جنس لهما هي عين الموجود المشاهد إذ لا فرق بين مافي الذهن وما في الوجود المشاهد.

ويرى الدكتور عبدالعظيم شرف الدين أن مذهب ابن عربي مستمد من مذهب الأشاعرة حيث يقولون إن العالم مكون من الجواهر والأعراض وأن العرض لايبقى مستمراً في الجوهر زمانين، ومذهبهم هذا ليس هو وحده الوجود لأنهم يفرقون بين العالم ورب العالمين فوجود الأول مخلوق ووجود

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٤/ ٩٤).

(٢) انظر مجموعة المسائل والرسائل (٤/٦، ١٧).

الثاني وجود خالق فأحل ابن عربي الذات في اصطلاحه محل الجواهر وجعل الأعراض صوراً لوجود تلك الذات[1] ورأيي أن قول ابن تيمية أوضح لاتفاق قول ابن الشحام مع ابن عربي في أصل الفكرة وهي: (أن المعدوم شيء ثابت في العدم) وتقول المعتزلة بأن الوجود الذهني هو عين الوجود الخارجي وأن الصفات المشتركة في الذهن هي عين الصفة المشخصة في الخارج وما أصله ابن عربي باطل من وجوه:

أولًا: أن المعدوم ليس بشيء في خارج الذهن فإن المستحيل يسمى شيئاً في الذهن لكنه ليس بشيء في خارج ويدل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم.

أما الكتاب:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[2] فأخبر أنه قبل وجوده لم يكن شيئاً ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[3] وقال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[4] فأنكر عليهم أن يكون خلقوا من غير شيء وهم العدم ولو كان العدم شيئاً في خارج الذهن لما أنكر عليهم ولو صح أن يخلقوا من شيء معدوم لكان الخالق لهم شيئاً معدوماً.

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[5] ولو كان المعدوم شيئاً في الخارج لكان التقدير لا يظلمون موجوداً ولا معدوماً، والمعدوم لا يتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم.

---

(١) انظر ابن القيم للدكتور عبدالعظيم شرف الدين ص(٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) سورة مريم، آية (٩).

(٣) سورة مريم، آية (٦٧).

(٤) سورة الطور، آية (٣٥).

(٥) سورة مريم، آية (٦٠).

وأما قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[1] فهو إخبار عنها حال وقوعها بدليل قوله : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾[2] لا شك أن ذلك لا يكون إلا يوم القيامة ولو قدر وجودها في حال العدم لكان المعنى شيء مقدر في علم الله وقوعه .

وأما قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3] فإنما سمي شيئاً حال ارادته موجوداً ولم يرد أن المعدوم شيء حال عدمه والله قد أخبر أن المعدوم نفسه يراد ويكون وأما القول بأن ماهية الشيء في الذهن هي عين وجوده فليس بصحيح لأن الموجود الذهني مشترك بين أفراده وأما الوجود العيني في الخارج فهو معين مشخص وإذا ظهر الفرق بينهما بطل القول بكون كل واحد منهما هو الآخر فإن ثبوت الأشياء في العلم والكتاب والكلام ليس هو عين الثبوت في خارج الذهن وإن كان هو شيئاً في الذهن فإذا علمت حقيقة شيء في ذهنك فإنه لا يلزم أن يكون موجوداً وجوده خارج الذهن مطابق له فإن الذهن يتصور الممتنعات التي لا وجود لها في خارجه فليست بشيء باتفاق العقلاء[4] .

وفي حديث الترمذي عن أبي حارثة عن أبيه أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال : أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به هل ترد من قضاء الله شيئاً قال هي من قدر الله .

وإنما يثبت في القدر المعدوم الذي سيكون وأما المعدوم الممكن الذي

---

(١) سورة الحج آية (١) .

(٢) سورة الحج آية (٢) .

(٣) سورة النحل آية (٤٠) .

(٤) انظر مجموعة المسائل والرسائل (١٥/١٤/٤) .

لن يكون فهو شيء ثابت في العدم عند من يقول به لكنه ليس بمقدر الكون والله يعلمه على ماهو عليه فيعلم أنه ممكن وأنه لا يكون والله يعلم أيضاً الممتنعات وأنها لا تكون مثل فرض الشريك للباري جل جلاله مع أن كل ذلك ثابت في العلم فيثبت بذلك أن المعدوم وأن سمي شيئاً في الذهن فإنه لا يكون في الخارج كذلك إلا إذا وجد[1] .

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قال: قيل يا رسول الله أعُلم أهل الجنة والنار؟ قال: « نعم قال: ففيم يعمل العاملون؟ فقال كل ميسر لما خلق له » وفي رواية أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون به ما أتاهم به نبيهم وتثبت الحجة عليهم. فقال لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2] .

وبذا يظهر فساد مقالة ابن عربي .

المقالة الثانية: من مقالات الحلولية قول الفخر الرومي وأصحابه: (أن الله هو الوجود المطلق الذي لا يتعين ولا يتميز وأنه إن تعين وتميز فهو الحق سواء تعين في مرتبة الألهية أو غيرها)[3] .

وهي أفظع وأدخل في الكفر من مقالة ابن عربي وإنما انتحلها هرباً مما في التفريق بين وجود الأشياء وماهيتها من الباطل الذي لا يستقيم أمام الأدلة الشرعية والعقلية الصحيحة وبيان ذلك أنه على القول الأول يمكن ألا يجعل

---

(١) انظر مجموعة المسائل والرسائل (١٣/٤) .

(٢) سورة الشمس، آية (٨) .

(٣) انظر مجموعة المسائل والرسائل (١٨/٤ وما بعدها) .

لله وجوداً خارجاً عن المخلوقات وأنه قاض عليها فيكون فيه اعتراف بوجود رب قائم بنفسه غني عن خلقه وإن كان فيه كفر من جهة جعله للخالق عين المخلوق .

وأما على ما ذهب إليه الفخر الرومي فوجود الخالق هو الوجود المطلق الساري في الموجودات المعنية، ومما علم بضرورة العقل أن الوجود المطلق لا يكون في خارج الذهن أبداً باتفاق العقلاء فآل مذهبه إلى انكار وجود الذات الإلهية لأن المطلق ليس له وجود مطلق في الخارج بل ليس له إلا وجود معين[١] قال ابن تيمية : (وأما في الخارج عن ذلك ـ أي العلم واللسان ـ فما ثم شيء موجود في الخارج شيئين)[١] بل الموجودات معينة بصفاتها الخاصة بها فما ثم إلا هو مخصوص معين بما يميزه عما سواه .

كما أن ابن عربي يقول بوجود زائد على الماهية وأما الفخر الرومي فليس في الوجود زيادة على الماهية .

المقالة الثالثة للحلولية مقالة التلمساني : (أنه لا فرق بين ماهية ووجود ولا بين مطلق ومعين بل عنده ماثم سواه ولا غيره بوجه من الوجوه وإنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له بمنزلة أمواج البحر في البحر وآخر البيت من البيت ومن شعرهم :

البحر لاشك عندي في توحده　　　وان تعدد بالأمواج والزبد
فلا يغرنك ماشاهدت من صور　　　فالواحد الرب ساري العين في العدد[١]

وهذا القول أشداً كفراً وزندقة من القولين السابقين فإن صاحب هذا القول لا يفرق بين المظاهر والظاهر ولا الكثرة والتفرقة إلا في الذهن لأنه محجوب عن الحقيقة فلما انكشفت له تبين له أنه لم يكن غير الله والرائي عين

(١) انظر مجموعة المسائل والرسائل (٤/٢٣، ٢٦) .

المرئي والشاهد عين المشهود فليس في الوجود شيء غير الله وجميع الاعتبارات لا وجود لها لأنها خيال ولا وجود له أصلًا إلا في ذهن من تصوره وأما الحقيقة فالموجودات هي الله ليس شيء غيره أبداً[1] .

هذا ويذكر ابن تيمية أن قول هؤلاء الحلولية من الصوفية مركب من ثلاث عقائد هي :

أولًا : سلب الجهمية وتعطيلهم .

ثانياً : مجملات الصوفية وهو مايوجد في كلامهم من الألفاظ المجملة المتشابهة وكلمات المغلوبين على عقولهم الذي يتكلمون به حال سكرهم واغمائهم .

ثالثاً : الزندقة التي هي أصل التجهم وهي غالبة على ابن سبعين والقونوي والتي قبلها غالبة على ابن عربي وزمرته[1] .

ويمكن رد مذهب الحلولية بأن يقال :

أولًا : هذه الأعيان الموجودة عندكم هل أوجدها الله بعد هذا العدم أو بقيت فيه فإن قال مافيه فيه فقد كابر الحس والعقل والشرع ومثل ذلك لا يقوله عاقل يدري ما يقول .

وإن قال بل أوجدها بعد عدمها لم تكن هي عينه لأن الله لم يكن معدوماً حال عدمها فيوجد لأنه ينافي قدمه تعالى فبطل بذلك الإتحاد (وجب أن يكون العالم غير الله بل هو خلقه)[2] .

ثانياً : أن الوجود والماهية شيء واحد في خارج الذهن فلا يتصور

(١) انظر مجموعة المسائل والرسائل (٤/٢٧) .
(٢) انظر مدارج السالكين (١/١٤٧، ١٤٨) .

الفرق بينهما وأما في الذهن فذلك يمكن لأن الذهن يفرض الممتنعات والمستحيلات .

ثالثاً : أن القول بأنه الوجود المطلق بشرط الاطلاق يلزمه أن لا يكون له سبحانه ذات موجودة خارج الذهن لأن المطلق بشرط اطلاقه لا يوجد إلا في الذهن وما لزم منه الباطل فهو باطل .

رابعاً : إن لازم ذلك سقوط التكاليف عن العبد وأنه ليس بمأمور ولا منهي وأنه ماثم طاعة ولا معصية ولا معروف ولا منكر إذ ما يكون في حق الرب عينه يكون في حق العبد كما يقولون وذلك ابطال للشريعة من أصلها وهو باطل فما لزم منه فهو باطل .

خامساً : أن لازم ذلك أنه لاثم موجود قديم ولا محدث وإنما هو موجود قديم ومحدث في آن واحد هو جمع بين النقيضين وهو مستحيل لذاته فما بني عليه فهو مستحيل لذاته .

هذا وأصل عقيدة الحلول والاتحاد أو وحدة الوجود هو الفناء في توحيد الربوبية وذلك بفناء السالك بشهوده عن مشهوده، وبذكره عن مذكوره الأمر الذي أدى بهم إلى القول بأن تصور الإنسان لوجوده في مقابل وجود الله هو إثبات لإثنينية في الوجود وهذا على حد قولهم شرك بالله حتى قال قائلهم :

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد

لذا فإنهم عند الذكر إما يقولون ياهو أو يا أنا لأنه ماثم إلا وجود واحد وهو وجود الحق جل جلاله .

وهذا أوصلهم في آخر المطاف للقول بمذهب ابن عربي والتلمساني والقونوي وغيرهم من القائلين بوحدة الوجود الذي كان نتيجة لعدم الفرق

بين القديم والمحدث في مسمى الوجود حيث جعلوا الوجود الذي في الذهن هو عين الوجود الذي في الخارج فكما أن الوجود في الذهن مطلق عن القيود فكذلك هو في الخارج ومسمى الوجود في الذهن يجتمع فيه الخالق والمخلوق فكذلك يكون الأمر في مسمى الوجود في الواقع والحقيقة الخارجية عن الذهن[1] .

قال ابن القيم رحمه الله: (والفناء الذي يشير إليه القوم ويعملون عليه أن تذهب المحدثات في شهود العبد وتغيب في أفق العدم كما كانت قبل أن توجد ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضاً فلا يبقى له صورة ولا رسم ثم يغيب شهوده أيضاً فلا يبقى له شهود ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل)[2] وبمقارنة هذا الكلام بما حكاه نفسه عن الاتحادية يظهر صحة ما ذكرناه آنفاً فيقول ابن القيم رحمه الله (والاتحادي يقول ماثم غير يوحده بل هو الموحد لنفسه بنفسه إذ ليس ثم سوي في الحقيقة)[1] .

مصادر التلقي عند الصوفية:

لا تختلف مصادر التلقي عند شيوخ التصوف عما كان عليه السلف الصالح وهي كتاب الله والسنة فقد قال أحمد بن الحواري منهم: (من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله) وقال أبو حفص النيسابوري: (من لم يزن أفعاله وأقواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال) وقال الجنيد بن محمد: (الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) انظر المرجع السابق (١/١٤٩) .

اقتفى أثر الرسول ﷺ) وقال أيضاً : (من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) وقال أبو عثمان النيسابوري : (من أمَّر السنة من نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة ومن أمَّر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة قال تعالى : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[1] وقال أبو حمزة البغدادي : (من علم الطريق إلى الله سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله إلا بمتابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله) .

وقال أبو الحسن النوري : (من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقتربن منه) وقال : (أعز الأشياء في زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه وعارف ينطق عن الحقيقة) وقال أبو عبدالرحمن السلمي : سمعت جدي أبا عمرو بن نجيد يقول : (كل حال لا يكون عنه نتيجة علم فإن ضرره أكثر على صاحبه من نفعه وسئل عن التصوف فقال : (الصبر تحت الأمر والنهي) .

وقد فسر معنى العلم عندهم بأنه الشرع المتمثل في نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف[2] هذا وقد حاول بعض الباحثين أن يشكك فيما تقدمت حكايته عن أئمة أهل التصوف بدعوى أن ذلك يقولونه أمام الناس وأما حقيقة ما يعتقدونه فخلاف ذلك[2] .

---

(١) سورة النور ، آية (٥٤) .
(٢) انظر الاستقامة (١/٩٦ ، ٩٩) .

وقد رد ابن تيمية رحمه الله هذه المقالة بأمور:[1] .

أولاً : أن ما تقدم نقله عنهم بالأسانيد الصحيحة مما لا يدع شكاً في أنه هو اعتقادهم ومسارهم الذي سلكوه والتزموه .

ثانياً : أن ما نقل عنهم خلاف ذلك لم ينقل عنهم بالأسانيد الصحيحة وبالتالي فلا يعتمد عليه من جهة النقل .

ثالثاً : أن القلوب علمها عند الله ولنا ظواهر الخلق وأحكام الدنيا مبنية على ذلك .

رابعاً : أن بعض النصوص المنقولة عنهم ليست ظاهرة في الباطل بل الظاهر فيها الحق لاسيما إذا قورنت بما ثبت عنهم من نقول صحيحة .

خامساً : أن خطأ المتأخرين منهم لا يلزم منه كون المتقدمين منهم مشاركين لهم في هذا الخطأ .

ونحن عندما نذكر ذلك لا ندافع عن الصوفية ولا عن التصوف لكنه إقرار لما يقتضيه البحث العلمي من الأمانة في النقل والعدالة في الحكم .

هذا وأما متأخروا الصوفية الذين خالفوا سبيل سلفهم المتبع للكتاب والسنة فأرجعوا طرق التلقي والمعرفة إلى ستة أمور :

الأول منها : هو الكشف ومعناه عندهم (هو الاطلاع على ماوراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً) .

وعرفه صاحب المنازل فقال : (المكاشفة مهاداة الشر بين متباطنين)[2]

---

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية (٩ وما بعدها) انظر الاستقامة (١/١٠٧ وما بعدها) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية (١٠٦) .

التعريفات للجرجاني (١٨٤) انظر المعجم الفلسفي (١٥٣) .

(٢) مدارج السالكين (٣/٢٢١) صاحب المنازل هو أبو اسماعيل الهروي .

وشرحه ابن القيم بقوله: (إطلاع أحد المتحابين المتصافيين صاحبه على باطن أمره وسره)[١] .

وقال ابن تيمية (هو ما يلقي في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية واقبالها بالقلوب على المطلوب)[٢] .

وعلى هذا فهو حالة تعتري القلب حال خلوة من حظوظ النفس ومشتهيات الطبع الإنساني من أحوال تقوي بصيرة القلب بحيث يبصر من الأمور والأحوال الغائبة عن الحس والعقل مالا يبصره غيره ولا يعرفه من العلوم والأحوال .

ومن الأمر المعلوم بضرورة العقل والشرع أن ما يحصل في القلب من أمور لغير النبي والرسول الموحى إليه لا تخلوا من حالين :

الحال الأول : أن يدل الدليل الشرعي على صحة الأمور التي تعلم عن طريق الفراسة الإيمانية كما قال ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله» رواه الترمذي عن أنس بن مالك وهو حديث حسن .

أو عن طريق الكرامة الربانية كاطلاع عمر رضي الله عنه على حال سارية في المعركة مع الروم وكعلم أبي بكر مافي بطن امرأته لكن هذه الأشياء لا تستمر بل يحدث خلافها إذا ما خالطت الغفلة قلب العبد كما قال سبحانه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٣] .

الحالة الثانية : أن لا يدل الدليل الشرعي على صحتها وفي هذه الحالة يجب عرضها على الشرع لأن الخواطر التي تحصل للإنسان قد تكون

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٢١) صاحب المنازل هو ابو إسماعيل الهروي .

(٢) انظر بيان تلبس الجهمية (١/٢٦٣) .

(٣) سورة المطففين، الآية (١٤) .

وساوس شيطانية كما قال سبحانه: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[1] عندما أمرنا أن نتعوذ به من وسوسة الشيطان[2] .

هذا والمتصوفة ترى أن الكشف حالة مستمرة بشيوخهم وأن أولئك الشيوخ دون سائر المؤمنين قد اختصوا بها وظنوا أن الكشف لا يكون إلا من الله خاصة وأنه لا يكون بعضه من الشيطان ولم يفرقوا بين الكشف الرحماني والكشف الشيطاني مما فتح الباب أمام الشيطان ليتلاعب بهم وبعقولهم مع أن هذا النوع من الكشف المدعى كما يكون للمؤمن يكون لسواه من الفساق والكفار والمشركين من الكهان والمنجمين والرّمّالين الذي كان سبباً في انتشار أنواع من الخرافات والشعوذات في محيط الصوفية والتصوف .

وقد ذكر ابن تيمية عدة وجوه تدل على بطلان هذا النوع من الكشف وعدم امكان الاعتماد عليه في تحصيل المطالب الشرعية وهي :[3]

أولًا : أن الرسل لم تأت به وإنما جاءت بالرد للكتاب والسنة وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[4] .

ثانياً : أن مجرد ترك الشهوات لا يكفي في تحصيل الحال الإيماني بل لابد أن تنضم إليه أنواع من العبادات الظاهرة والباطنة حتى تكتمل بصيرته .

---

(١) سورة الناس الآيات (٤ ـ ٦) .

(٢) انظر مدارج السالكين (٣/٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨) شرح العقيدة الاصفهانية (١٢).

(٣) انظر الفتاوى (٢/٦٥ ، ٦٩ ، ٧٤) .

(٤) سورة النساء، آية (٥٩) .

ثالثاً : إتفاق شيوخ الصوفية وأئمتهم على وجوب تعلم العلم الشرعي وأن طريقتهم لا تستقيم إلا باتباع الكتاب والسنة مما تقدم بيان شيء منه .

رابعاً : أن الاعتماد في تحصيل المطالب الإلٰهية عليه غير مأمون لما تقدم من امكان أن يكون الحاصل في القلب من وساوس الشيطان .

خامساً : أن الكشف لا يمكن أن يكون طريقاً للمطالب الإلٰهية لأن ايصاله للمطلوب غير متيقن والدليل لابد أن يستلزم المدلول وهو لا يستلزم المطلوب فقد يوصل إليه وقد يوصل إلى ضده .

سادساً : عدم معرفة إيصاله إلى الحق إلا إذا وصل إليه فهو ليس بمأمون ولا متعين للوصول إلى الحق .

سابعاً : أن الكشف لا يوصل إلا إلى معرفة اجمالية أما التفصيلية فهذا مالا يمكنه أن يوصل إليه وإذا ظهر لنا عدم امكان الاعتماد على الكشف كطريق للمعرفة الصحيحة المدلول عليها بالكتاب والسنة وأن خطأ الكشف يعرف بمخالفة الكتاب والسنة أو مخالفة العقل الصحيح المهتدي بهما أو مخالفته للحس الظاهر والباطن[1] .

علمنا بأن أكثر مايدعيه هؤلاء الصوفية من المكاشفات ما هي إلا أحوال شيطانية أو تخيلات وهمية تحصل لبعض الناس إذا غاب عن وعيه وحسه بسبب قوة الواردات وضعف النفس مما يفقد صوابه فيرى ويشاهد بخياله مالو كان في حال اعتداله وحسه لم يره ولم يشاهده الأمر الذي أدى ببعضهم إلى الحلول والاتحاد لاعتقاده أن ما شاهده هو ربه أو من حدثه هو كذلك[1] .

---

(١) انظر الجواب الكافي (٢/١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦) .

ثانياً: الذوق: وهو كما في التعريفات (عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره)[1].

وقال ابن القيم: (الذوق مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر ولا يختص بحاسة الفم في لغة القرآن بل ولا في لغة العرب قال تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[2] وقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾[4] وقال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[5].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس ليدل على مباشرة الذوق واحاطته وشموله فأفاد الأخبار عن إذاقته أنه واقع مباشر غير منتظر فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر وأفاد الإخبار عن لباسه أنه محيط شامل كاللباس للبدن[6].

وقد جاء الذوق في السنة النبوية مقصوداً به ما يحصل في القلب من لذة إيمانية وحلاوة يقينية في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولًا».

قال ابن القيم تعليقاً على هذا الحديث: (فأخبر أن للإيمان طعماً وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب) وقد عبر عنه النبي ﷺ بالطعام والشراب كما في حديث (إني أظل يطعمني ربي ويسقيني) قال ابن

---

(١) التعريفات للجرجاني (١٠٧) دار الكتب العلمية.

(٢) سورة الحج، آية (٢٢).

(٣) سورة آل عمران، آية (١٠٦).

(٤) سورة صٓ، آية (٥٧).

(٥) سورة النحل، آية (١١٢).

(٦) مدارج السالكين (٨٧/٣) مجموع الفتاوى (٣٣٥/١٠) (٨٧/٣، ٨٨) (٩٠/٣، ٩٩).

القيم: (وقد غلط حجاب من ظن أن هذا الطعام والشراب حس من الفم) وذكره بلفظ الحلاوة فقال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) قال ابن القيم: (وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة حيث قال لأبي سفيان: (هل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه فقال: لا قال كذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلب) فاستدل بما يحصل لاتباعه من ذوق الإيمان الذي خالطته بشاشة القلب لم يسخطه ذلك القلب أبداً على أنه دعوة نبوة ورسالة ملك ورياسة[١] وبذا يثبت أن للقلب ذوقاً يجده كذوق الفم للطعام والشراب وهذا اللفظ والمعنى ثابت بدلالة الكتاب والسنة[١].

أنواع الذوق:[٢]

والذوق ثلاثة أنواع هي:

أولاً: ذوق طعم الإيمان بوعد الله وهو يقين يدفع على الجد في العبادة والطاعة ويمنع ضد ذلك من أن يحبسه عن ذلك كله فلا معارض له في القلب يمنع طلبه لما وعد الله به عباده الصالحين ويدل عليه قوله جل شأنه:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[٣] فقد نفى الله الإيمان عمن لم يذق طعم الإيمان لأن المخاطبين مسلمون وليسوا بمؤمنين الإيمان الكامل الذي يباشر القلب.

ثانياً: ذوق الإنسان بالله تعالى والفرق بين هذا النوع والذي قبله أن متعلق الأول وعد الله وأما الثاني فمتعلقه الأنس بالله فهو أشرف من الأول

---

(١) مدارج السالكين (٣/٨٧، ٨٨).

(٢) مدارج السالكين (٣/٩٠، ٩٩).

(٣) سورة الحجرات، آية (١٤).

كما أن الأول حال للعابد وهذا حال للمريد فلا يشغله عن ربه ذكراً له وعبادة له أي شيء كائن من كان والمريدون يتفاوتون في قوة الأنس بربهم بحسب قربهم منه وبعدهم عنه ومن كان منهم أقرب كانت خشيته أشد .

النوع الثالث : ذوق المنقطع المحجوب عن ربه طعم الاتصال وهو أنس القلب بالرب والأولى في التعبير عن ذلك أن يستعمل لفظ القرب بدل الاتصال ولفظ أنس القلب بغير الله بدلًا من الانقطاع أو البعد عنه تعالى لأن التعبير بالاتصال قد يوهم مذهب أهل الحلول والاتحاد لأن بعضهم يقول : (المنقطع ليس في الحقيقة منقطعاً، بل لم يزل متصلًا لكنه غائب عن المشاهدة فلما شاهد وجد نفسه لم يكن منقطعاً بل لم يزل متصلًا) .

موقف الشرع من الذوق :[1]

الذوق شرعاً ينقسم إلى قسمين :

الأول: ذوق شرعي فهو مادل عليه الدليل من الكتاب والسنة فإن الذوق لا يستقل بالدلالة على شيء .

الثاني: ذوق غير شرعي: وهو مادل الدليل الشرعي من الكتاب والسنة على بطلانه أو لم يدل الدليل على بطلانه أو صحته لأنه والحالة هذه لا يعرف هل هو وسواس شيطاني أو ذوق إيماني ولأن لكل إنسان ذوق فالوجودي يدعي أن ذوقه يدل على اعتقاده وهكذا الأمر بالنسبة لليهودي والنصراني .

ثم بما عرف مدعي الذوق أن ذوقه ذلك صحيح حتى يعتمد عليه ويترك دلالة الكتاب والسنة ووجود الذوق ليس دليل صحته بل لايدل على أنه نافع فقد يكون ذوقاً ضاراً بصاحبه .

---

(١) انظر مدارج السالكين (٤٩٤/١ ومابعدها (٤٤٢/٣) ـ انظر الجواب الصحيح (١٣٦/٣) مجموع الفتاوى (٣٣٥/١٠) .

هذا ونصوص القرآن والسنة تدل على وجوب اتباع الكتاب والسنة معقولهما لاغير مما يدل على رد ماسواهما. كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[٣] وقوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي». وقوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» وقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». وقوله ﷺ: «أوتيت القرآن ومثله معه» أي السنة النبوية والأدلة في هذا كثيرة ولا حصر لها فتحصل بها أن الذوق لابد وأن يعرض على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن وافقهما أقر وإن خالفهما رد لأن الله ورسوله لم يجعلا الأذواق هي الحكم بل الحكم هو ما أنزله جل شأنه على رسوله كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[٤] وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٥] وقال لمن حكم بغير ما أنزل: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[٦] وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٧] وقال: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٨] ولأن تحكيم الذوق يفضي لأن يحكم كل مبطل على إثبات باطله بذوقه وهوكثير في أهل الباطل والإلحاد[٩].

(١) سورة المائدة آية (٩٢).
(٢) سورة النساء آية (٦٥).
(٣) سورة الأحزاب آية (٣٦).
(٤) سورة المائدة، آية (٤٩).
(٥) سورة الأنعام، آية (٥٧).
(٦) سورة الشورى، آية (٢١).
(٧) سورة المائدة، آية (٤٤).
(٨) سورة المائدة، آية (٥٠).
(٩) مدارج السالكين (٣/٤٤٢) وكتاب هذه هي الصوفية ص(٤٠).

ثالثاً : الوجد قال في التعريفات هو (ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع وقيل هو بروق تلمع ثم تخمد سريعاً)[1] .

وقال ابن القيم : (وهو ثمرة أعمال القلوب من الحب في الله والبغض فيه) وقد ورد لفظ الفعل منه في القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾[2] وهو هنا بمعناه اللغوي وقد استشهد صاحب منازل السائرين على الوجدبقوله سبحانه في أصحاب الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (الكهف ١٤) قال ابن القيم : (هذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق وذاقوا حلاوته وباشر قلوبهم فقاموا من بين قومهم وقالوا ربنا رب السموات والأرض)[3] وقال ابن القيم في موضع آخر في تعريف الوجد عند القوم : (هو ما يصادف القلب وما يرد عليه من واردات المحبة والشوق والإجلال والتعظيم وتوابع ذلك)[3] .

وقد ورد الوجد في السنة فقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار »[3] .

---

(١) التعريفات للجرجاني ص(٢٥٠) .

(٢) سورة النور ، آية (٣٩) .

(٣) انظر مدارج السالكين (٣/٦٩ ، ٧٠) .

والفرق بين الوجـد والذوق :

يرى صاحب منازل السائرين أن الذوق أثبت من الوجد فيبقى أثره في القلب ويطول بقاؤه وأما الوجد فهو عارض يلهب القلب ويقلقه ثم يذهب . ويرى ابن القيم أن الوجد أعلى من الذوق ويدل على ذلك (بأن النبي ﷺ جعل الوجد فوق الذوق وأعلى منزلة منه فإنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » وقال في الذوق : « ذاق طعم الإيمان » فوجد حلاوة الشيء المذوق أخص من مجرد ذوقه ولما كانت الحلاوة أخص من الطعم قرن بها الوجد الذي هو أخص من مجرد الذوق فقرن الأخص بالأخص والأعم بالأعم)(١) .

ثم توج ذلك ببيان أن ما يدعى من أن الوجد هو مجرد لهيب القلب فيه نظر لأن مادة الوجد في اللغة تدل على الثبوت يقال وَجَدَ الشيء وجداً من الوجود الذي هو الثبوت فوجد الشيء يجده وجداناً إذا حصل له وتثبت ويدل على أن مادة الوجد تدل على الثبوت والدوام .. قوله سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾(٢) وقـوله : ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣) وقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾(٤) وقـوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾(٥) .

كما قال أن الذوق يعتمد في حصوله على الوجدان(١) وبذا يثبت ابن القيم أن الوجد أخص من الذوق وحال الوجد تحصل من حال الذوق لاستلزام الوجد الدوام والثبوت وهذا ما لا يوجد في الذائق .

---

(١) انظر مدارج السالكين (٣/٨٩) .
(٢) سورة النور، آية (٣٩) .
(٣) سورة النساء، آية (١١٠) .
(٤) سورة الضحى، الآيات (٦ ، ٧ ، ٨) .
(٥) سورة صٓ، الآية (٤٤) .

أنواع الوجـــد :

للوجد ثلاثة أنوع :

أولًا : وجد يستفيق بسببه البصر فيرى من آيات الله المشهودة الدالة على خالقها وموجدها ويستفيق السمع ويثبت عليه من الآيات ماتدل على آيات الله الكونية مما تتفتح بسببه آفاق الفكر والإدراك وعظمة الخالق وما يجب له من الألوهية والربوبية والأسماء والصفات . ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] وقـوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[2].

ويسميه ابن القيم بوجد السمع والبصر والفكر .

ثانياً : وجد الروح وهو وجد تستنير به الروح فيعقب لها كمالًا وحلاوة وسروراً فتجده يحب ما يحب الله ويكره ما يكره الله فهو يسمع بالله ويبصر به .

ثالثاً : وجد العبودية فيشهد فيه العبد معبوده ويستغني بشهوده هذا عن كوني الدنيا والآخرة فتموت في نفسه حظوظ النفس ولا يبقى له غرض في شيء إلا عبادة الله فيفني عمره في ذلك والناس في هذا الوجد على ثلاث مقامات :

أولًا : عبد محض وهو من استعبدته نفسه وشهواته فملكته وقهرته فانقاد لها .

---

(١) سورة الحج، الآية (٤٦) .

(٢) سورة الروم، آية (٨) .

ثانياً : عبد مكاتب من انعقدت له أسباب الحرية وهو يسعى إلى كماله فهو عبد من جهة وحر من جهة فما دام قد يبقى عليه من الكتابة درهماً واحداً فهو عبد مادام ينظر إلى حظوظ نفسه .

ثالثاً : عبد حر وهو من خلصت عبوديته لربه وخرج من قيود النفس وحظوظها .

موقف الشرع من الوجد :

لا يختلف الأمر في الوجد عن الذوق فهو منقسم إلى قسمين :

١ ـ وجد إيماني وهو مادل عليه الشرع وهو وجد صحيح .

٢ ـ وجد شيطاني : وهو مالم يدل عليه دليل من الشرع هو وجد باطل .

فالمرجع في صحته وفساده إلى دلالة الشرع لأنه كالذوق لا يدري ما يوجد في القلب هل هو حق أو باطل لأن فرضهما في الوجود متساوياً فلابد من مرجح وهو الشرع .

كما أن الوجد قد يبلغ ببعض الناس إلى درجة يغيب فيها عن شعوره وفي هذه الحالة هو لا يدري من يخاطبه فيظن أن ذلك مَلَكَ أو أنه ربه والأمر ليس كذلك لأن من فقد التمييز والعقل لم يكن له حكم صحيح على الأشياء فكيف يمكن الاعتماد عليه كما قال ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة وذكر منها .. والنائم حتى يستيقظ » وهذا الواجد في حالة غيبوبته بوجده هو كالنائم من جهة أنه لا عبرة بما يقوله أو يتكلم به حال نومه أو يراه حال نومه أضف إلى ذلك ضعف العلم والمعرفة فإنه عندئذ لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فتملي عليه الشياطين ما تشاء وهو لا يعلم إن ذلك المخاطب له ماهو إلا شيطان أو فاسق من الجن فيقع عندئذ السهو والخطأ[١] .

(١) انظر مدارج السالكين (٧٢/٣) .

ولا يخرج الوجد الإيماني عن أحد أمرين :

الأول : واعظ القلب وهو في قلب كل مؤمن كما قال ﷺ : «والداعي على الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن» فهو من لمة الملك وعليه من الله دليل .

الثاني : خطاب القرآن الكريم والسنة النبوية ببيان صحة ما يوجد في القلب حال حضور العقل والفكر . قال ﷺ : «والداعي على رأس الصراط كتاب الله» .

يقول ابن القيم رحمه الله : (فما ثم خطاب قط إلا من جهة من هاتين : إما خطاب القرآن وإما خطاب هذا الواعظ)[١] .

وبذا يعلم أنه لا يمكن الاعتماد على كل ما يوجد في القلب من أحوال لعدم الثقة بها ووجودها ليس دليل كونها حقاً .

رابعاً : الإلهام ويراد به عند الصوفية مرتبة التحديث(٢) .

وهو ما ورد بلفظه في الكتاب والسنة قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[٣] .

وقال ﷺ لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم قل: «اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي» .

هذا ولم يرتض ابن القيم تسمية الإلهام بالتحديث وذلك لأن التحديث أخص من الإلهام وذلك لأمرين :

أحدهما : أن الإلهام يكون لعموم المؤمنين ولا يختص به أحد دون أحد كما في الآية المتقدمة .

---

(١) انظر مدارج السالكين (٣ / ٧٢) .

(٢) انظر مدارج السالكين (١ / ٤٤ ، ٥٠) انظر الصفدية (١ / ٢٥٣ ـ ٢٦٠) .

(٣) سورة الشمس ، الآيتان (٧ ، ٨) .

الثاني : أن التحديث لا يكون لعموم المؤمنين بدليل تخصيص الرسول ﷺ عمر به دون الأمة حيث قال ﷺ : «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» وعرف ابن القيم الالهام بأنه وحي لغير الأنبياء ولكن للمكلفين كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[1] ويكون لغير المكلفين كما في قوله سبحانه :﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[2] .

وهو عند صاحب المنازل على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : نبأ يقع وحياً قاطعاً بسماع والنبأ أخص من الخبر لأن النبأ هو الخبر الذي له شأن وهو نبأ لأنه خبر عن غيب معظم .

وقد عرف ابن القيم هذا النوع بأنه (الإعلام الذي قطع من وصل إليه بموجبه إما بواسطة سمع أو هو الإعلام بلا واسطة وقد انتقد ابن القيم جعل طريق الإلهام السمع وذلك لأنه والحالة هذه خطاب وليس إلهاماً وهذا يستحيل أن يحصل إلا للأنبياء وهذا من خصوصيات موسى عليه السلام حيث خاطبه ربه في الطور .

وأما مايقع لأرباب الرياضيات من السماع فأعلاها مايكون منه أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً فإن هذا يمكن أن يقع لغير الأنبياء وذلك لخطاب الملائكة عمران بن حصين بالسلام عليه فلما اكتوى تركت خطابه فلما ترك الكي عادت بالسلام وهو على نوعين :

أحدهما : خطاب يسمعه بأذنه وهو وارد بالنسبة لعموم المؤمنين .

الثاني : (خطاب يخاطب به الملك الروح فهذا معنى قوله ﷺ إن

---

(١) سورة القصص، الآية (٧) .

(٢) سورة النحل، الآية (٦٨) .

للملك لمه بقلب ابن آدم وللشيطان لمه فلمة الملك إيعاد بالخير والتصديق بالوعد ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد) ثم قرأ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾[1] وهذا هو واعظ القلب في قلب المؤمن .

وأما وقوع الإلهام بغير واسطة لم يقم عليه دليل فلا يجزم بنفيه ولا إثباته إلا بدليل من سماع أهل الرياضيات الخطاب المسموع كخطاب الجن وقد يكون المخاطب مؤمناً وقد يكون شيطاناً وهو على نوعين :

أحدهما : أن يخاطبه بحيث يسمعه بأذنه .

الثاني : أن يلقيه على قلبه عندما يلم به .

وعلى هذا فإن المخاطب لا يعلم هل خطابه في هذه الحال خطاب ملك أو خطاب شيطان يطلق ابن القيم على هذين الخطاب الرحماني والخطاب الشيطاني .

وعلى ذلك فلا يمكن التمييز بينهما إلا بعرضهما على الشرع فما وافقه علم انه رحماني وما خالفه علم أنه شيطاني .

ومن سماع أرباب الرياضيات خطاب حالي ويكون من النفس فتوهمه أنه من خارجها وهذا كثيراً ما يعرض لكثير من السالكين فيظن أن الله قد خاطبه وسببه أن النفس حين صفائها وتخلصها من كدراتها حال الرياضة يقوى سلطان الروح والقلب على سلطان البدن والجسد وعندئذ يكون الخطاب للقلب والروح والسالك في حال غيبته وفنائه قد يتصور من يخاطبه وهو ليس كذلك .

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٦٨) .

الدرجة الثانية : إلهاماً يقع عياناً هو عام ضروري لا يستطيع القلب دفعه وشرطه :

أولًا : ألا يتجاوز حدود الله فيرتكب المعاصي كالكهان وأصحاب الكشف الشيطاني .

ثانياً : أن لا يقع على خلاف الحدود الشرعية كالتجسس على العورات التي نهى الله عن التجسس عليها .

ثالثاً : أن لا يخطيء أبداً بل يستمر صدقه لأن الكشف الشيطاني لا يستمر صدقه بل يكذب وتمثله الأمور الفطرية والمعلومات الضرورية التي لا تحتمل الخطأ .

الدرجة الثالثة : إلهام يجلو عين التحقيق صرفاً وهو الفناء في شهود الحقيقة الكونية وهذا النوع من الإلهام هو أصل أهل الحلول والاتحاد مع أن صاحب المنازل يخالف هؤلاء في أن الفناء في الشهود لا في الوجود وأهل الحلول والاتحاد هو عندهم فناء في الوجود وأياً كان الأمر فإنه لابد من الرجوع إلى الشرع في كل نوع من هذه الأنواع فإن دل الدليل عليه قبل وإن رده لم يقبل وقد تقدم أن التحديث أخص من هذا الإلهام ومع ذلك فإن عمر رضي الله عنه كان لايعتمد على تحديثه ولكن على ماجاء عن الرسول ﷺ .

هذا ويقرر ابن تيمية أن الإلهام الذي في القلب تارة يكون في الشرعيات وتارة يكون في الكونيات فإذا كان في الشرعيات فهو على نوعين :

النوع الأول : ماكان من جنس العلم والقول والظن والاعتقاد .

النوع الثاني : ماكان من جنس العمل والحب والإرادة والطلب وفي

هذين الأمرين يكون الإلهام بترجيح أحد الفرضين على الآخر وبيان أنه هو الحق والصواب وقد يكون مجرد ميل لأحدهما دون الآخر .

وأما إذا كان في الأمور الكونية فقد ينكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظناً وإذا تقرر هذا فإن الكشف في الأمور الدينية أولى وأحرى لكن لابد أن يكون بالدليل الكاشف وقد يكون بدليل ينقدح في قلب العبد لكن لا يستطيع التعبير عنه .

وقد خطأ ابن تيمية الغزالي في إنكاره هذا النوع الأخير من الترجيح بالدليل المنقدح في نفس العبد ولا يستطيع التعبير عنه وذلك أن كثيراً من الناس ينقصهم البيان فقد يلقي في القلب أن هذا الطعام حرام وأن هذا الرجل فاسق أو كافر وإن كان من جهة العمل للجزم لابد من دليل شرعي في ذلك كله وأنه لا يعمل بمجرد الظن والتخمين وبنى قوله هذا على أن الأدلة لا يجوز أن تتكافأ في واقع الأمر وحقيقته وإن كانت تتكافأ عند الناظر فيجتهد في معرفة أرجحها فإذا بذل جهده في معرفة الحق لم يطلب منه أكثر من ذلك[1] .

هذا وابن تيمية عندما يقرر ماتقدم فإنه لا يرى الاعتماد على مجرد ما يحصل في القلب من إرادة بل لابد من عرض ذلك على الكتاب والسنة ويدل عليه قوله : (فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه وبهذا يقوي أحدهما الآخر كما قال سبحانه : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾[2] .

قال بعض السلف في هذه الآية : (هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها أثراً فإذا سمع الأثر كان نوراً على نور)[3] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٦ ، ٤٧٨) .

(٢) سورة النور ، آية (٣٥) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٥) .

خامساً : الفراسة :

الفراسة في اللغة بالكسر مصدر فرست بالعين أفرس من باب ضرب ومنه تفرست فيه الخبر تعرفته بالظن الصائب ومنه حديث : «إتقوا فراسة المؤمن»[١] .

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على معناها كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[٢] قال مجاهد رحمه الله المتفرسين وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (للناظرين) وقال قتادة رحمه الله للمعتبرين وقال مقاتل : للمتفكرين ولم يرد لفظها فيه .

وأما في السنة فقد وردت بلفظها حيث قال رسول الله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» رواه الترمذي عن أنس وهو حسن ولا تعارض بين أقوال المفسرين في الآية المتقدمة لأن الناظر متى نظر وتفكر في حالهم وانتقل إلى الصور المشابهة لهم في الحال وصل إلى الحكم عليهم بنفس الحكم فهي أقوال متلازمة غير متنافرة[٣] .

أنواع الفراسة :[٤]

يرى ابن القيم أن الفراسة على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : (الفراسة الإيمانية وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده يثبت على القلب) وسمي بهذه الاسم تشبيهاً له بوثوب الأسد على فريسته وسبب هذا النوع : نور يقذفه الله في قلب العبد يكون من

---

(١) المصباح المنير (٢/١٢١) .

(٢) سورة الحجر، آية (٧٥) .

(٣) انظر مدارج السالكين (٢/٤٨٢، ٤٨٣) .

(٤) انظر مدارج السالكين (٢/٤٨٣ ـ ٤٩٥) شرح الطحاوية (٤٤٥ ـ ٤٤٧) .

نتائجه أن يفرق بين الحق والباطل والصادق والكاذب وغيرها وهي بحسب الإيمان قوة وضعفاً فكلما قوي الإيمان قويت وكلما ضعف ضعفت فمن كان أقوى إيماناً كان أقوى فراسة .

النوع الثاني : الفراسة الرياضية :

وهي تكون بالمران والتكرار وتحمل المشاق من الجوع والسهر والتخلي وسببها أن النفس إذا تجردت مما يثقلها صار لها كشف بحسب ذلك التجرد وهذا النوع لا يختص بأهل الإيمان بل هو حاصل للمؤمن والكافر فهي مشتركة بين الناس وقوتها تبعاً لسببها .

ولا دلالة فيها على إيمان ولا ولاية ولا يستفاد منها الكشف عن الحق ولا عن طريق مستقيم فهي تحصل للولاة والأطباء وأرباب الحرف بحسب معرفتهم بوظائفهم وتمكنهم منها .

النوع الثالث : الفراسة الخلقية وهي الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن لما بينهما من ارتباط اقتضته حكمة الله كأن يستدل بزرقة العينين على الدهاء والخبث وبسعة الصدر على سعة الخلق والحلم ونحو ذلك وهي أيضاً كسابقتها لا يستدل بها على إيمان ولا كفر ولا ولاية ولا عداوة .

ويرى صاحب المنازل أن الفراسة : استئناس الغيب ويقصد بها قياس الشاهد على الغائب وهو أمر مشترك بين المؤمن والكافر وغيرهما ومثالها الاستدلال على نزول المطر بشدة البرق والرعد واستدلال الطبيب على المرض بظواهر على المريض ونحو ذلك وهي عنده على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : فراسة طارئة نادرة وهى التي تقع على لسان شخص مرة واحدة في العمر مثلًا وهي عنده فراسة الغافلين الذين لم يأنسوا بذكر الله وقربه فهي كرمية من غير رام .

الدرجة الثانية: فراسة تجنى من غرس إيماني وهي تبعاً لصدق الحال فكلما كان الحال أصدق كانت هذه الفراسة أقوى وهي عنده تختص بأهل الإيمان وهم فيها متفاوتون .

النوع الثالث: فراسة سرية وهي التى يخبر فيها المختار المصطفى صاحب الولاية عن الأمور المغيبة تارة تصريحاً وتارة تلويحاً إما ستراً لحاله أو صيانة لما أخبر به من الابتذال ووصوله إلى غير أهله وإما لغير ذلك من الأسباب وهي أعلى الأنواع عند صاحب منازل السائرين مع أن هذه الدعوى غير مقبولة لأن المخبر عن الغيب قد يكون ساحراً أو كاهناً أو عرافاً أو منجماً وكل هؤلاء أحوالهم من الشرع مذمومة. قال ﷺ: « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » .

هذا وقد غلا الصوفية في الفراسة حتى جعلوها مصدراً من المصادر الأساسية للمعرفة حتى حكموها في أمور الديانة مع أن صاحب الفراسة إن كانت إيمانية لا يعرف صدقها إلا بوقوعها وجزمه بمجرد الواردات يحتاج إلى عرضه على الشرع ليحكم عليه بالنفي أو الإثبات والحق أو الباطل وغاية الأمر أن لم يدل الدليل على أنه باطل أو حق أن تكون الفراسة من المرجحات، ولذا لم يعرف أن النبي ﷺ حكم بفراسة في مال أو عرض أو نفس أو نسب أو عقل بل بالبينات والشهود وغاية الفراسة أن تكون أمارة ظنية لاتصل إلى مقام الدليل من حيث دلالته على اثبات الحكم فلا تصلح للاستقلال بالحكم في أمر شرعي أو قدري بل لابد من عرض مادلت عليه على نصوص الكتاب والسنة وما دل عليه معقولهما .

مما يدل على أن الفراسة ترجع أسبابها إلى أمرين:[1]

(١) انظر مدارج السالكين (٢/٤٨٩) .

الأول: جودة ذهن المتفرس .

الثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه وهما أمران ظنيان فما بني عليه يكون ظنياً فلا يستقبل بالإثبات أو النفي ولا تعارض به الأدلة اليقينية من الكتاب والسنة ومعقولهما .

وبذا يتبين لنا أنه لا يجوز الاعتماد في إثبات الحكم الشرعي أو القدري على مجرد الفراسة وحدها بل لابد من اجتماع أمارات كثيرة تقرب إلى اليقين أو أدلة شرعية تدل على المنفي أو المثبت .

وأما في الأمور الدنيوية التي لا تعارض كتاباً ولا سنة ولا تستلزم نقل الأموال وإثبات الحدود والتعزيرات فلا بأس من الاستفادة من الفراسة في مجال الترجيح بين المتعارضات .

سادساً : الرؤى والأحــلام :

تعريفها :[1]

الرؤى جمع رؤيا: وهي مايراه الشخص في منامه وهي بوزن فُعْلَىٰ وقد تسهل الهمزة، وقال الواحدي: هي في الأصل مصدر كاليسرى فلما جعلت اسماً لما يتخيله النائم أجريت مجرى الأسماء .

قال الراغب : والرؤية بالهاء إدراك المرء بحاسة البصر وتطلق على مايدرك بالتخيل نحو : أرى أن زيداً مسافر وعلى التفكر الفطري نحو﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ ﴾[2]وعلى الرأي وهو اعتقاد أحد النقيضين على غلبة الظن .

وقد وردت الرؤيا في القرآن الكريم كما في قوله سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلۡنَا

---

(١) عقيدة التوحيد في فتح الباري ص(٣١٧) بتصرف يسير جداً .

(٢) سورة الأنفال، آية (٤٨) .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ ﴾[١] وقال جل جلاله : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾[٢] وقال سبحانه في سورة يوسف : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[٣] .

وكما ورد في القرآن فقد ورد ذكرها في السنة فقال ﷺ : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» رواه البخاري عن أنس..

وأخرج البخاري أيضاً عن عبادة بن الصامت وأبي هريرة قال : (رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) . وأخرج أيضاً عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

تعريف الرؤيا اصطلاحاً :[٤]

قال القاضي أبو بكر بن العربي : (الرؤيا إدراكات علقها الله تعالى في قلب العبد على يدي ملك أو شيطان إما بأسمائها أي حقيقتها وإما بكناها أي بعباراتها وإما تخليط ونظيرها في اليقظة الخواطر فإنها قد تأتي على نسق في قصة وقد تأتي مسترسلة غير محصلة وهذا حاصل قول الأستاذ أبي اسحاق) .

أنواع الرؤيا :

ولها نوعان:

الأول : رؤيا صادقة وهى رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين وقد تقع لغيرهم بندور وهي التي تقع في اليقظة على وفق ماوقعت في النوم .

(١) سورة الإسراء، آية (٦٠) .
(٢) سورة الفتح، آية (٢٧) .
(٣) سورة يوسف، آية (٤٣) .
(٤) عقيدة التوحيد في فتح الباري ص(٣٢٠) .

الثاني : الأضغاث : وهي لا تنذر بشيء وهي على أنواع :

الأول : تلاعب الشيطان ليحزن الرائي كأن يري أنه قطع رأسه وهو يتبعه أو أنه وقع في هول ولا يجد من ينجده ونحو ذلك .

الثاني : أن يرى أن بعض الملائكة تأمره أن يفعل المحرمات مثلًا ونحوه من المحال عقلًا .

الثالث : (أن يرى ما تتحدث به نفسه في اليقظة أو يتمناه فيراه كما هو في المنام وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة أو ما يغلب على مزاجه ويقع عن المستقبل غالباً وعن الحال كثيراً وعن الماضي قليلًا)[١] .

وجعلها ابن القيم على ثلاثة أنواع هي :[٢] .

١ ـ رؤيا رحمانية وهي الرؤيا التي من الله وهي من أسباب هداية العبد إلى الحق ومنها رؤيا الأنبياء وهي وحي معصوم من الشيطان .

٢ ـ رؤيا نفسانية وهي أضغاث الأحلام .

٣ ـ رؤيا شيطانية وهي التى تكون من الشيطان .

أما الرؤيا الصادقة فهي لا تكون إلا موافقة للوحي لا سيما إذا تواطأت وتكون إما منبهة على ما يوافق الوحي أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمة لم يعرف الرائي اندراجها فيه فينبه على ذلك بالرؤيا ومما يعين على صدق الرؤيا تحري الصدق ، وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهي ، والنوم على طهارة ، ومستقبل القبلة ، وذكر الله حتى تغلبه عيناه فإن الرؤيا والحالة هذه لا تكاد أن تكذب .

(وللرؤيا ملك موكل بها يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله فيضر بها

---

(١) عقيدة التوحيد في فتح الباري ص(٣٢٠) .

(٢) انظر مدارج السالكين (٢/٥١ ، ٥٢) .

لكل أحد بحسبه)[1] ويدل على ماذكره ابن القيم من أنواع الرؤيا بقوله ﷺ: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما حدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام».

والرؤيا هي مبدأ الوحي وقد كان أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً وصدقها عند اقتراب الزمان لا يكاد يخطيء وذلك لبعد الناس عن عصر النبوة وآثار النبوة فيعوض الله المؤمن بالرؤيا الصالحة. وأما في زمان النبوة فلم تكن الحاجة إليها ملحة لاستغناء الناس بنور النبوة عن أي شيء آخر ولذا فهي من نظير الكرامات التي تخرج على أيدي الصالحين من عباد الله فهي في عصر الصحابة أقل من سواه لاستغنائهم بقوة الإيمان واحتياج غيرهم لضعفه عندهم قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام) وقال ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قيل وما المبشرات يارسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له) رواه البخاري. لذا فإنها إذا تواطأ رؤى المسلمين فإنها لا تكذب قال ﷺ لأصحابه لما رأوا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: (أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان)[1].

والذي يظهر أن الحجة في الحديث في اقراره ﷺ لأن ذلك يدل على صحة مارأوه وأما مجرد الرؤيا وإن تكاثرت فلا يدل على صحتها مجرد التواطيء بل لابد من دليل شرعي يدل على مدلولها وما تقتضيه فكم ضلل

---

(١) انظر مدارج السالكين (١/٥١، ٥٢).

الشيطان الناس بمجرد رؤى تتكاثر بين الناس وتتكرر أو أن يكون المراد في الحديث الاجماع بحيث لا يبقى أحد إلا رآها وهي الحالة هذه لا تكاد تكذب .

قال القرطبي : (والمسلم الصادق الصالح هو الذي ناسب حاله حال الأنبياء فأكرم بنوع مما أكرم به الأنبياء وهو الاطلاع على الغيب أما الكافر والفاسق والمخلط فلا ولو صدقت رؤياهم أحياناً فذاك كما قد يصدق الكذوب وليس كل من حدث عن غيب يكون خبره من أجزاء النبوة كالكاهن أو المنجم)[1] .

وقد أرشد الرسول ﷺ للطريق الصحيح الذي يسلكه العبد مع رؤياه فأخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره»[2] وأخرج من طريق آخر عن أبي قتادة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه فليبصق عن يساره وليستعذ بالله منه فلن يضره»[2] .

وأخرج البخاري عن أبي سلمة قال لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول وأنا كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثاً ولا يحدث بها أحداً فإنها لا تضره»[2] .

---

(١) عقيدة التوحيد في فتح الباري ص(٣٢١ ، ٣٢٢) .

(٢) عقيد التوحيد في فتح الباري ص(٣٣٣) .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم فليصل» .

قال الحافظ ابن الحجر : (محاصيل ماذكره في أدب الرؤيا الصالحة ثلاثة أشياء، أن يحمد الله عليها وأن يستبشر بها وأن يحدث بها لكن لمن يحب دون من يكره وحاصل ماذكر من أدب الرؤيا المكروهة أربعة أشياء: أن يتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان وأن يتفل حين يهب من نومه عن يساره ثلاثاً ولا يذكر لأحد أصلًا .

ووقع عند المصنف (يعني البخاري) عن أبي هريرة خامسة وهي الصلاة)[1] .

وزاد مسلم سادسة (وهي التحول عن جنبه الذي كان عليه) قال ﷺ : «وليتحول عن جنبه الذي كان عليه» . قال الحافظ : (ورأيت في بعض الشروح ذكر سابعة وهي قراءة آية الكرسي ولم يذكر لذلك سنداً)[1] .

موقف الصوفية من الرؤيا :

لقد غلا الصوفية كثيراً في الرؤيا فجعلوها مصدراً للتلقي حتى أنك لترى أكثر الطرق الصوفية تنشأ نتيجة لرؤيا رآها شيخ الطريقة يدعي أن الرسول ﷺ خصه بشيء من الدعوات والصلوات أو نحو ذلك وحاشاه ﷺ أن يخص أحداً بشيء هو من دين الله قال تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[3] وقد أشهد

---

(١) عقيدة التوحيد في فتح الباري ص(٣٣٤) .

(٢) انظر مشتهى الخارف الجاني ص(٩١) .

(٣) سورة المائدة آية ٣ .

الرسول ﷺ أصحابه في يوم عرفة في السنة العاشرة من الهجرة على البلاغ فقال : « اللهم فاشهد » فلم يبق من الدين شيء يحتاجه الناس إلا بينه . قال ﷺ : « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » وفي ذلك من رمي الرسول بالكتمان مالا يتناسب ومقام النبوة والرسالة وما تتصف به الأنبياء من الأمانة والصدق والتبليغ وقد أجمعت الأمة على عدم اعتماد أي فتوى شرعية من الرسول ﷺ إذا أفتى بها من رآه مناماً وبه يعلم مدى ماوصل إليه التصوف من الضلالة وشرعية مابه تقويض أركان الملة المحمدية بل إن من الصوفية من يدعي رؤيته يقظه وهو ممتنع عند جماهير أهل العلم من الصوفية وغيرهم .

حكم الرؤيا الصالحة شرعاً :

إن رؤيا غير الأنبياء لا يعتمد عليها إلا إذا وافقت مادل عليه الشرع بنصوصه المعصومة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . يقول ابن القيم رحمه الله : (وأما رؤيا غيرهم (أي الأنبياء) فتعرض على الوحي الصريح فإن وافقته عمل بها وإلا لم يعمل بها)[1] هذا إذا كان الأمر متعلقاً بأمر شرعي ديني أو أمر كوني قدري وأما إذا كان الأمر لا يخالف شرعاً ولا سنة قدرية فإن الرؤيا الصادقة الصالحة تكون من المرجحات فيستأنس بها وقد تقدم الكلام على هذا الأمر في الإلهام فأغنى عن اعادته .

وجعل الرسول ﷺ الرؤيا جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة لا يدل على أنها حجة قائمة بذاتها لأن لفظ الحديث مشعر بضعفها وإن كانت صالحة فنسبتها جزء واحد إلى ستة وأربعين جزء وتسميتها في الحديث صادقة مشعر بأن الصدق غير ملازم لها لبنائها على وزن الفاعل المفيد لما يدل

(١) انظر مدارج السالكين (١/٥١) .

عليه الفعل المضارع من التجدد المفيد للانقطاع وعدم الاستمرار ولا يقال أنه صفة مشبه على وزن اسم فاعل فتدل على الدوام والثبوت لعدة أمور :

أولها : كونها معروفة في سياق الحديث بما يدل على ضعفها كما تقدم .

الثاني : أنه زيدت في بعض الروايات أنها جزء من ستة وسبعين جزءاً مما يدل على أنّ صدقها مختلف في الرتبة كما حرر[1] .

الثالث : أن الرسول ﷺ أضافها إلى المؤمن الصالح وهذه أمور خفية لا تعلم حقيقة أمرها إلا بمعرفة مافي باطن العبد ولو ادعاه مدع لكذب لأنه تزكية لنفسه فكيف يعتمد على خبره .

الرابع : أن الرؤيا الصادقة قد تحصل للكافر وإن كان نادراً كما حصلت لعزيز مصر وحصلت للسجينين مع يوسف عليه السلام .

الخامس : أن تأويل الرؤيا منا ليس بقاطع إذ لا يكون قاطعاً إلا عن وحي ولا وحي لغير الأنبياء ونحن لا نعلم صدقها من كذبها إلا بعد وقوعها فلا يصح الاعتماد عليها والحالة هذه .

السادس : أن اعتبارها صفة مشبه خلاف الأصل .

الصـوفية والطـرق :

وهكذا مضى القرن الثاني الهجري والتصوف لايزيد عن أن يكون سلوكاً فردياً يعبر عن الزهادة في الدنيا والتقلل منها والجد في طلب الآخرة واصلاح الظاهر بأنواع العبادات الظاهرة وتزكية الباطن بأنواع الأخلاق الباطنة[2] .

---

(١) انظر عقيدة التوحيد في فتح الباري (٣٢٢، ٢٢٦) .

(٢) انظر الصوفية بين الحق والخلق ص(٢٢٥) .

وما أن دخل القرن الثالث الهجري حتى نحى التصوف طريق التجمع حول بعض الأشخاص آخذاً شكلًا جديداً غير شكله المعتاد ، بدعوى أن هؤلاء الأشخاص مكاشفون .

يقول السيد محمود أبو الغيض المنوفي الحسيني : (وهذه الطرق تنسب كل واحدة لولي من الأولياء رضي الله عنهم وقد يرثها حفيد وسيط لولي من أولئك الأولياء فيكرمه الله سبحانه وتعالى بكرامة آبائه وأجداده الصالحين فإن من سار على دربهم أكرمه الله مثل اكرامهم ومن فرط أو قصر أكرمه الله لأجلهم)[1] .

وقول أبي الغيض : (أو قصر أكرمه الله لأجلهم) في كلامه نظر ظاهر لأن الله رهن الناس بأعمالهم كما قال سبحانه : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[2] وقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[3] وقال : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾[4] وقال : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[5] فمن قصر استحق العقاب لا الإكرام ومن أحسن فله الثواب قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾[6] واطلق على هذا التجمع حول هذا الشخص وما يدعيه من أوراد وأذكار اختص بها اسم طريقة وكانت أول الطرق نشأة .

---

(١) انظر الصوفية معتقداً ومسلكاً ص(٤٣) .

(٢) سورة البقرة، آية (٢٨٦) .

(٣) سورة المدثر، آية (٣٨) .

(٤) سورة مريم، آية (٩٥) .

(٥) سورة النجم، الآيات (٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) .

(٦) سورة الرحمن، الآية (٦٠) .

الطريقة السقطية نسبة إلى السري السقطي والجنيدية نسبة إلى الجنيد وذلك في القرن الثالث الهجري ثم مازالت الطرق تتسع وتكثر حتى بلغت أوجها في القرنين السادس والسابع ومن ذلك الحين انتشرت الطرق الصوفية انتشاراً لم يسبق له نظير حتى أن الطريقة الواحدة لتنشق منها عدة طرق .

وقد قامت هذه الطريقة على ثلاثة عناصر رئيسية[١] :

الأول : سلب المنتسب إلى الطريقة لإرادته وتسليمها إلى الشيخ الذي ينتسب إليه بحيث لا يتصور أن يخالفه البتة وهو المعبر عنه بقولهم (أن يكون المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغسال) .

ثانياً : انقطاع المريد عن الدنيا انقطاعاً تاماً فلا يشارك في الحياة العامة ولا يتجاوب شعورياً مع مشاكل المسلمين وآمالهم .

ثالثاً : يعيش المريد في جو من الحياة الرمزية المليئة بالألغاز والتي يدعي أنه لا يعلم فك معانيها إلا الشيخ المتبوع فهو أعمى أصم لا عقل له يتقبل كل شيء بلا مناقشة ولا اعتراض .

هذا ومن أشهر الطرق الصوفية انتشاراً في العالم الإسلامي :

أولًا : القادرية نسبة لعبدالقادر الجيلاني الملقب بسلطان الأولياء ولد مؤسسها في بغداد سنة ٥٦١ وهو أعجمي ونسبته الجيلاني ترجع إلى جيلان لكنهم يرجعون نسبه إلى فاطمة الزهراء[١] .

ثانياً : الرفاعية وتسمى أيضاً البطائحية مؤسسها أحمد بن حسين الرفاعي نسبه يرجع إلى بني رفاعة قبيلة من العرب ولد وعاش في أم عبيدة

---

(١) انظر الصوفية بين الحق والخلق ص(١٤٣ ، ٢٣٢) .

من قرى البصرة في العراق توفي سنة (٥٧٨) والبطائح اسم المنطقة ويرجعون نسبه أيضاً إلى فاطمة الزهراء ورفاعه أحد أجداده[١] .

ثالثاً: الشاذلية مؤسسها أبو الحسن بن علي بن عبدالله بن عبدالجبار الشاذلي نسبة إلى شاذلة قرية في تونس وهو مغربي الأصل انتقل إلى مصر ومات فيها سنة (٦٥٦) في صحراء عيذاب وهو في طريقه إلى الحج وكان مكفوف البصر ويرجعون نسبته إلى فاطمة الزهراء[٢] .

رابعاً: الأحمدية ويقال لها السطوحية وهي منسوبة إلى أحمد البدوي رجل من المغرب هاجر هو وأبوه إلى مكة المكرمة ثم هاجر أحمد إلى مصر بعد أن مر بالعراق وزار مشاهدها وأضرحتها وهو شيعي المذهب باطني الاعتقاد أقام في مدينة طنطا وفيها مات سنة (٦٧٥) وإنما سميت السطوحية لأنه كان يقيم على سطح بصورة دائمة ويذكر أنه كان لا يصلي وهو فاطمي النسب كما يذكرون[٣] .

خامساً: النقشبندية: أسسها بهاء الدين محمد بن محمد البخاري وهي ثورة قامت لتجديد التصوف ومحاولة لإظهارها في ثوب جديد لذا كان من نتائج هذا التجديد إلغاء كثير من الطقوس الصوفية فألغت الذكر والخلوة والكرامات وأهم ما ألغته ما يدعيه الصوفية من أن سلسلة التصوف تنتهي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكنها بعد وفاته رجعت إلى ماعليه الصوفية من الطقوس والأعمال وقد توفي مؤسسها في سنة (٧٩١) وأرجعوا سلسلتهم إلى الجنيد بن محمد مارة بأبي زيد البسطامي حتى اتصل بأبي بكر الصديق[٤] .

---

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية ص(٣٥٧) .

(٢) انظر المرجع السابق (٣٥٦) .

(٣) انظر المرجع السابق ص(٣٥٩) وكتاب السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة ص(٥٠) .

(٤) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص(٣٦٠) .

سادساً : التيجانية مؤسسها أحمد التيجاني يدعي أنه أخذ طريقته عن النبي ﷺ مباشرة في المنام مات في المغرب سنة (١٢٣٠) وقد شجع الاستعمار الفرنسي انتشار هذه الطريقة في البلاد التي احتلها[١] .

سابعاً : السنوسية نسبة لمحمد بن على السنوسي ولد في الجزائر ومات في ليبيا سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٩م بدأت السنوسية كحزب سياسي لمقاومة الاستعمار [١] .

ثامناً : البريلويه تنسب إلى أحمد رضا البريلوي من مدينة بريلي في الهند في ولاية أتريراديش لقب نفسه (عبدالمصطفى) ولقبه أتباعه حضرة الأعلى) تقوم طريقته على التشيع والغلو مات سنة ١٣٤٠[١] .

هذا ويبدو أن نسب الطرق لبعض متقدمي الصوفية وشيوخهم كالجنيد بن محمد إنما هي نسبة متأخرة وأما هم فلم يكن لهم طرق تنسب إليهم ولا ادعوها كما تقدمت الإشارة إليه .

والناظر في كتاب الله وسنة رسوله يجد النصوص تأمر المسلمين بالتجمع تحت لواء شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حيث يقول سبحانه : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٢] ويقول جل شأنه : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[٣] وقال ﷺ : « عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار » وفسر ﷺ الجماعة بأنه ماكان عليه هو وأصحابه وقال في حديث افتراق الأمة « كلها في النار إلا واحدة » مما يدل على أن الصوفية بعددها وتفرقها وفسادها وعقائدها

---

(١) نفس المرجع (٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧) .

(٢) سورة آل عمران، آية (١٠٣) .

(٣) سورة الأنعام، آية (١٥٣) .

لا تدخل في مسمى هذه الفرقة الناجية الواحدة لا سيما وأن فيهم من مخالفة الشريعة والاقتداء بغير رسول الله ﷺ ماهو واضح جلي والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾(٢) وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾(٣) فالإمام المتبع المقتدى به هو الرسول ﷺ دون من سواه وهو لم يجعل لنا بينه وبين الله واسطة في التبليغ غيره فقال ﷺ: «أنا أفضل بني آدم ولا نبي بعدي» وهو ﷺ قد بين لنا كل ما نحتاجه من أمر ديننا ودنيانا قال ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» وقال ﷺ: في معرض الأمر بالاقتداء به «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» وقال: «من رغب عن سنتي فليس مني» وقال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي» وبذا يظهر لنا وجوب الاجتماع على ماجاء به الرسول ﷺ وأنه هو الإمام المقتدى به دون سواه وأنه لا طريق للعمل بالشريعة سوى ما جاء به مما يدل على أن الاجتماع على أي اسم غير الإسلام والإيمان والإحسان فهو بدعة في الدين لقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد» وأنه لا يجوز الاقتداء بأي شخص كائن من كان بحيث تأخذ أقواله وأفعاله مسلمات شرعية إلا إذا ثبت أنها موافقة لما جاء به الرسول ﷺ كما قال الإمام مالك: (كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر) يريد الرسول ﷺ. وقال الإمام الشافعي: (إذا وافق قولي قول الرسول ﷺ

---

(١) سورة الحجرات، آية (١).

(٢) سورة النساء آية (٥٩).

(٣) سورة النساء آية (٦٥).

وإلا فاضربوا بقولي عرض الحائط) وبناء على ذلك فليس لأحد من الخلق طاعة مطلقة على عباد الله إلا أن يوافق قوله قول رسول الله ﷺ ويبدو أن الصوفية تأثروا كثيراً بالشيعة في قضية الإمامة بحيث جعلوا شيوخهم كالأئمة عند الشيعة في تلقي أقوالهم بالقبول وعدم المناقشة أو الاعتراض على شيء منها لا سيما إذا قرن ذلك بإصرارهم على ارجاع نسب شيوخ طرقهم إلى فاطمة الزهراء وسلسلة تصوفهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه مما يدل دلالة قاطعة على ما قدمناه من تأثرهم بعقيدة الإمامة عند الشيعة هذا ونحن عندما نقول هذا فإنا ننزه شيوخ السلف من المنسوبين إلى التصوف أن يكونوا كذلك لما تواتر عنهم وعلم بطريق النقل الصحيح من معتقد سلفي وعمل سني لا أثر للبدعة فيه مع عدم تنزيهنا لأحد من البشر من الخطأ إذ كل بني آدم خطاء .

ومما تقدم علم أن الانتساب إلى هذه الطرق بدعة في الدين فيحرم الانتساب إليها، ويجب الانتساب إلى الأمة المحمدية وأخص من هذا الانتساب إلى السلف الصالح الذين هم على ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الموسومين بلقب الفرقة الناجية التي تمثل الأمة المحمدية في صفاء عقيدتها ونقائها وصلاح أعمالها المتضمن المتابعة للرسول ﷺ في كل قول أو فعل أو اعتقاد .

المجمل لاعتقاد الصوفية الطرقية:

وقد أوجز ابن تيمية رحمه الله اعتقاد هذا النوع من الصوفية فيما يلي:

أولًا : التوحيد عندهم :

الفناء في توحيد الربوبية بحيث لا يشهدون إلا الخالق وهم في ذلك على طريقتين :[١]

(١) انظر مدارج السالكين (٢٠/٤٤٧) .

الأولى: أن وجود الحق هو عين وجود المخلوق وهو مذهب الحلولية والاتحادية منهم .

الثاني: وهو أخف وهو أنه لا أثنينية في الوجود بل لابد أن يتصور العارف عدم وجود ذاته وهؤلاء يفرقون بين الخالق والمخلوق لكنهم يجعلون تصور الوجود للمخلوق حال وجود الخالق اثنينية في الوجود تنافي التوحيد للخالق جل وعلا وهذا مذهب صاحب منازل السائرين أبي إسماعيل الهروي ومما أورده من الشعر :

ماوحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد

فالتوحيد عنده نوعان :

النوع الأول: غير موجود وغير ممكن وهو توحيد العبد لربه .

النوع الثاني : توحيد صحيح وهو توحيد الله لنفسه[1] .

ويرى بعض الصوفية أن التوحيد ثلاثة أنواع :

النوع الأول: توحيد العامة وهو توحيد الألوهية .

قال ابن تيمية عن هذا النوع من التوحيد (فهو التوحيد الذي جاء به الرسول من أولهم إلى آخرهم ونزلت به الكتب كلها وبه أمر الله الأولين والآخرين) فهو في الحقيقة توحيد خاصة الخاصة[2] .

النوع الثاني: توحيد الخاصة وهو مايحصل بالمشاهدة والمكاشفة ويعرفونه بأنه (اسقاط الأسباب الظاهرة والصعود عن منازعات العقول والتعلق بالشواهد وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلًا ولا في التوكل سبباً ولا في النجاة وسيلة)[3] وهو الفناء .

---

(١) انظر مدارج السالكين (٣/٤٤٩) . (٢) انظر مدارج السالكين (٣/٤٨٢، ٤٨٤) .

(٣) انظر مدارج السالكين (٣/٣٩٧ ـ ٥٠١) .

وقد رد ابن تيمية هذا النوع بعدة أدلة من الكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل والحس أما الكتاب فقوله سبحانه: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾(١) وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٢) وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾(٣) وقال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤) فرتب أحكامه الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب المتنوعة.

وأما السنة فقوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وفي السنن عنه ﷺ أنه قيل له: (أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقي بها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله) ومن الأثر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيدة عندما قال له: (أتفر من قدر الله) يعني الطاعون ـ قال عمر (أفر من قدر الله إلى قدر الله) والعقل قاض بأنه لا ولد إلا بنكاح ولا مال إلا بطلب والحس يدل على ذلك فمن ترك شيئاً من هذه الأسباب لا يحصل له المسبب عنها لكن الواجب عدم الاعتماد على السبب والتوكل عليه لكن يكون الاعتماد والتوكل على الله مع تعاطي ماجعله الله سبباً فإن الأسباب مؤثرات ناقصة والمؤثر التام هو ارادة الله الكونية القدرية ومشيئته النافذة فإن المراد لا يتأخر عنهما أبداً(٥).

النوع الثالث: توحيد خاصة الخاصة وهو توحيد الله لنفسه بنفسه كما في قوله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٦) وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

(١) سورة الأعراف، آية (٥٧).
(٢) سورة النحل، آية (٦٥).
(٣) سورة المائدة، آية (١٦).
(٤) سورة المائدة آية (١٠٥).
(٥) انظر مدارج السالكين (٣/٣٩٧ ـ ٥٠١).
(٦) سورة آل عمران، آية (١٨).

﴿ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1] وقـوله : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[2] وهـو كلامه وخبره عن نفسه بنفسه فهو صفته القائمة به .

وهذا وإن كان حقاً إلا أن دعوى أن التوحيد لا يكون إلا توحيده بنفسه غير صحيح إذ لو كان ذلك صحيحاً لما جاز للأنبياء والرسل وأخصهم محمد ﷺ فعل ذلك وأمرهم الناس به بل كيف يتصور أن أعلم الناس بربه هو أجهلهم به وأعجزهم عن توحيده كما أنه لم يثبت عن الرسول ﷺ إثبات توحيد لا يمكن النطق به ولا كان للأمر بالنطق بالشهادة والدعوة إلى مدلولها معنى[3] .

وبذا يعلم مافي هذا التقسيم من مخالفة الكتاب والسنة وما عليه سلف الأئمة مما يدل على فساده وعدم استقامته لا سيما وأنه لا يشتمل إلا على شهود الربوبية والتي يستوي الخلق بالنسبة إليها نظراً لأن المخلوقات بالنسبة للخلق والرزق والملك متساوون فلا فرق فيه بين طاعة ولا معصية ولا معروف ولا منكر ولا كافر ولا مؤمن ولا موحد ولا مشرك ولا مطيع ولا عاص ولا فاسق ولا كافر وإنما يكون الفرق بالإيمان بمدلول توحيد الألوهية قال ابن تيمية : (فمن زعم أن المشاهدة لتوحيد الربوبية يدخل في مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقاً فإنه غالط بل لابد من الفرق فإنه ضروري)[4] .

---

(١) سورة الأنبياء، آية (٢٥) .

(٢) سورة الحشر، آية (٢٢) .

(٣) انظر مدارج السالكين (٣/٥١١ وما بعدها) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٢٤٢) .

ولأنه (إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي الفرق الطبيعي فبقي متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه)[1] ولا يعرف الفرق الشرع إلا عن طريق توحيد الألوهية المتضمن اتباع المأمور واجتناب المحظور وعندئذ تتضح معالم أسماء الدين والإسلام وتلازم أحكامها الشرعية من الشرك والكفر والنفاق أو المعصية أو الطاعة وما يترتب عليها من وعيد في الآخرة .

ثانياً : (إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة) .

والمراد بالحكم هو المشيئة فلا يصل العارف إلى مقام الفناء حتى يفنى عن جميع مراداته بمراد ربه وجميع الكائنات مرادة له تعالى إرادة كونية قدرية وبناء عليه فلا فرق بين الحسنة والسيئة ولا الطاعة والمعصية إذ سمى الكل موافقة الإرادة الكونية القدرية وعليه فلا يوجد ماهو مبغوض لله إذ الكل محبوب له لأنه إذا وقع وخلق علم أن الله يحبه ويرضاه حتى قال قائلهم :

فصرت منفعلًا لما يختاره   فكل ما أفعله طاعات

وسبب هذا عدم الفرق بين ما تتعلق به الإرادة الكونية من الخلق والإيجاد والرزق ونحوها وبين ما تتعلق به الإرادة الشرعية مما يحبه الله من امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه وبذا يحصل الفرق بين الطاعة والمعصية والحسنة والسيئة إذ هو يريد كوناً وقدراً مالا يريده ديناً وشرعاً فهو لا يرضى الكفر لكنه يخلقه ولا يرضى المعصية لكن يوجدها من العبد[2] .

ثالثاً : إنكار الحكم والغايات المحمودة في الخلق والأمر فهو عندهم يفعل لا لحكمة ولا لشيء فهو مبني على قولهم أنه يفعل لمحض المشيئة فقط

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٠/٢٣٤) .

(٢) انظر شذرات البلاتين ورسالة الحسنة والسيئة لابن تيمية ص(١/٢٤٦) .

والأشياء بالنسبة لها متساوية من جهة اقتضائها لوجود المخلوقات وتشريع المأمورات والمنهيات وهو خلاف ماعليه السلف الصالح من أنه يخلق ويشرع لحكمة عظيمة وغاياته محمودة سامية وعلى ذلك دل كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2] وقال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[5] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[6] فقد علل الله خلقه كما علل أمره مما يدل أنه يخلق لحكمة كما أنه يشرع لحكمة كما أنه يلزم من ذلك أن يكون خلق الجماد مثل خلق الإنس والجن وخلق الأنبياء مثل خلق فساق الخلق وخلق آدم كخلق إبليس وأن يكون التوحيد في الفضل كالصلاة والصيام وهكذا دواليك ومنتهى ذلك انه لافرق بين العلم والجهل ولا الطاعة والمعصية لأنها بالنسبة للمشيئة سيان وأن العالم والجاهل سيان وهكذا لازم ذلك أن القبح والحسن متساويان والمأمور والمحظور متساويان وليس في واقع الأمر لا حسن ولا قبح ولا مأمور ولا محظور[7] .

---

(١) سورة الحجر آية (٨٥) .

(٢) سورة النساء آية (١٦٥) .

(٣) سورة الذاريات آية (٥٦) .

(٤) سورة البقرة آية (١٨٣) .

(٥) سورة التوبة آية (١٠٣) .

(٦) سورة العنكبوت آية (٤٥) .

(٧) انظر شذرات البلاتين ص(٢٤٧/١) .

رابعاً: عدم تعظيم الأمر والنهي لتساويهما بالنسبة للمشيئة ولذا فلا فرق عندهم بين الأنبياء والفساق ومن هنا جوز الشاذلي أن يكرم الفجار كما يكرم أكابر أوليائه لأن ذلك عطيته وموهبته يعطيها الله ويهبها من يشاء من عباده ولازم ذلك أنه لا مانع أن يدخل أكبر أوليائه النار وأفجر خلقه الجنة لأن الأمرين بالنسبة للمشيئة متساويان تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[١] كما قال سبحانه في الحديث القدسي: (إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) وهم يجوزون أن يظلم المطيع لمحض المشيئة .

وقال سبحانه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[٢] وقال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣] وقال: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[٤]

خامساً: جعلوا الخارق للعادة علامة الصلاح ولم يشترطوا الصلاح بالعلم والإيمان الصادق والتقوى[٥] .

مع أن الخوارق قد تكون علي يد الكافر كالمسيح الدجال الذي هو أعظم الدجالين فتنة وتكون على أيدي السحرة كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[٦] مع أنه القائل سبحانه: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾[٧] وقد يكون بسبب الجن والشياطين كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي﴾[٨] علماً بأن الخارق للعادة لو جرى على يد صالح في واقع الأمر مادل على أنه

(١) انظر شذرات البلاتين (١/٢٤٨) .
(٢) سورة القلم الآيتان (٣٥، ٣٦) .
(٣) سورة الزمر الآية (٩) .
(٤) سورة الحشر الآية (٢٠) .
(٥) انظر نفس المرجع (١/٢٥٢) .
(٦) سورة الأعراف الآية (١١٦) .
(٧) سورة طه الآية (٦٩) .
(٨) سورة النمل الآية (٣٩) .

أفضل من غيره بل قد يكون غيره خيراً منه كما أن سليمان أفضل من عفريت الجن وهذا التوسع في أمر الخوارق للعادات هو الذي جعل الزوايا عند الصوفية مأوى للسحرة والدجالين وذوي الأغراض الفاسدة والذين انخدع العامة بهم مما كان سبباً لنشر الكثير من الخرافات والأنماط السلوكية المخالفة للشريعة .

سادساً : غلوهم فيمن يدعون ولايته من ذلك قول بعضهم :

إن الولي يعطي (كن) وقال بعضهم: إنه لا يمتنع على الولي فعل الممكنات كما أنه لا يمتنع على الله فعل المستحيلات. بل أن الولي قادر على الممتنع لذاته ولا يمتنع عليه شيء حتى الجمع بين النقيضين بل قال ابن عربي منهم أنه لا يعزب عن قدرة الولي شيء من الممكنات . قال ابن تيمية تعليقاً على هذه العبارة: (والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات هو الله وحده) ومقتضى هذا أن الولي يعلم كل ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه قالوا: إن ذلك كان للنبي ﷺ ثم انتقل إلى الحسن بن علي ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد حتى ينتهي ذلك إلى أبي الحسن الشاذلي كما تدعيه الشاذلية منهم[1] .

وأنت ترى كم في هذه الأقوال من مناقضة للشريعة ففيها :

أولاً : التمثيل والله يقول عن نفسه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2] .

ثانياً : دعوى أن الولي يعلم الغيب والله يقول : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[4]

(١) انظر شذرات البلاتين ص(١/٢٥٢)
(٢) سورة الشورى آية (١١) .
(٣) سورة هود آية (١٢٣) .
(٤) سورة الجن الآيتان (٢٦ ـ ٢٧) .

ثالثاً : قدرة الولي على ما يقدر عليه الرب جل وعلا والله يقول : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣] فكيف يقدرون على مالم يقدرهم الله عليه .

والجمع بين النقيضين مستحيل عقلًا وشرعاً وإيجاده يجعله ممكناً ليس مستحيلًا ضرورة أن الاستحالة الذاتية تعني عدم امكان وجوده فخالفوا بذلك صريح العقل وصحيح الشرع .

سابعاً : أن محمداً هو الله وذلك من الكفر الواضح الصريح وفيه دعوى الحلول والاتحاد وهو مخالف لصريح العقل حيث جعل المحدث قديماً والقديم محدثاً وهو جمع بين النقيضين وهو مستحيل عقلًا وشرعاً كما أنه يشتمل على انكار النبوة لمحمد ﷺ وإنكار ألوهية الله على خلقه ويشتمل على الغلو فيه ﷺ وهو القائل : « إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم غلوهم في أنبيائهم » الحديث وقال ﷺ لمن قال له ماشاء الله وشئت : « أجعلتني لله نداً قل ما شاء الله وحده » فإذا كان ﷺ لم يرتض أن يشرك هو بربه في لفظ يقتضي التساوي في المشيئة فكيف يتصور أن يرتضي أن يجعل هو الله حاشاه ﷺ وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وقولهم هذا نظير قول النصارى المسيح هو الله وقول بعضهم ابن الله أو ثالث ثلاثة .

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[٤]
وقال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾[٥]

---

(١) سورة المائدة آية (١٧) .
(٢) سورة البقرة آية (٢٥٨) .
(٣) سورة الصافات آية (٩٦) .
(٤) سورة المائدة آية (١٧) .
(٥) سورة المائدة آية (١٧٣) .

ثامناً : اشتمال كثير من أدعيتهم وأقوالهم على ما مؤداه تعطيل الأمر والنهي كقول أبي الحسن الشاذلي : (يكون الجمع في قلبك والفرق على لسانك موجوداً) ومفهوم هذا أنه لا فرق بين الأشياء إلا نطقاً باللسان وأما حقيقتها فكل شيء هو كل شيء، وعليه فلا يبقى أمر إلا هو الآخر، الذكر هو الأنثى والعكس والأمر هو النهي والعكس والعدم هو الوجود والإله هو المألوه وعكس ذلك صحيح .

وقد كان أبو الحسن الشاذلي يدعو فيطلب : (أن يعطيه الله إذا عصاه أعظمُ ما يعطيه إذا أطاعه) ومدلول هذا أنه لا فرق بين الطاعة والمعصية فالكل مثاب عليه وأن المعصية عليها ثواب أكثر من ثواب الطاعة وفيه نسبة الظلم إلى الله وإنكار حكمته في شرعه مما يدل على أنه يجوز على الله ما نفاه عن نفسه بأن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات بل هم أفضل منهم(١) .

تاسعاً : القول بالفناء في الذات الإلهية :

ومعناه عندهم (اسم الاضمحلال مادون الحق علماً وجحداً وحقاً) وهو عندهم على ثلاث درجات : والأولى على ثلاث مراتب :

أولًا : فناء المعرفة في المعروف وهو (غيبة العارف بمعروفه عن شعوره وبمعرفته ومعانيها في ربه سبحانه عن وصفه هنا وقام به فإن المعرفة فعله ووصفه فإذا استغرق في شهود المعروف فني عن صفة نفسه وفعلها) .

ثانياً : فناء العيان في المعاين وهو الفناء جحداً فهو يعني عن كل ما يراه ويشاهده من وجوده ونفسه .

---

(١) انظر شذرات البلاتين (١/٢٤٨) .

ثالثاً : فناء الطلب في الوجود فيصير واجداً بعد أن كان طالباً وعندئذ لا يبقى لصاحب هذا الفناء طلب لأنه ظفر بالمطلوب المشاهد وقد مثل ابن القيم لهذه الأنواع في جانب الحب ما خلاصته :

أنه يفنى أولًا بمحبوبه وصفات محبوبه عن نفسه فإذا رأى محبوبه كان الأمر في حقه أشد وعندئذ يغيب عن صفات المحبوب بمشاهدته إياه فإذا ظفر به غاب عن هذه المشاهدة إلى حال المقام معه وأصدق مثل على ذلك ما كان من حال النسوة عندما شاهدوا يوسف ولم يكونوا رأوه من قبل قطعن أيديهن عندما سلبتهن النظرة إليه شعورهن وهو مقام الفناء وأما امرأة العزيز فلم يؤثر ذلك فيها لألفها لمشاهدته ورؤيته فمقامها البقاء لا الفناء ويظهر فناء النسوة من جهتين :

الأولى : ذهولهن عن تقطيع الأيدي .

الثاني : ذهولهن عن احساسهن بألم القطع .

ومن هنا يظهر لنا سر احتجاب الله عن عباده في الدنيا حيث أنهم لا يحتملون ذلك .

الدرجة الثانية : فناء شهود الطلب لاسقاطه فاشتغلوا بربهم عما يعملونه وعما يجري لهم من الأحوال .

الدرجة الثالثة : الفناء عن شهود الفناء والفرق بين هذه والتي قبلها أنه في الدرجتين الأولى والثانية شاعر بفنائه وفي هذه الدرجة فهو يفنى عن فنائه فلا يشعر به ، وإذا وصل إلى هذه الدرجة فإن السالك يرجي له بقاء الحال واستمرارها . وقد انتقد ابن القيم وابن تيمية هذا المسلك من مسالك الصوفية بعدة وجوه :[1]

(١) انظر مدارج السالكين (٣٦٨/٣ ، ٣٨٣) شذرت البلاتين (٢٤٦/١ وما بعدها) .

أولًا : أنه لم يرد في الكتاب والسنة مدح الفناء وذمه ولا ثبت ذلك عن السلف الصالح ولا استعملوا لفظه ولا أشاروا إليه مما يدل على أنه بدعة في الدين وكل بدعة ضلالة .

ثانياً : لو كان هذا المقام محموداً لكان السلف رحمهم الله أولى الناس بالعناية به فلما لم يثبت ذلك دل على أنه ليس من سبيلهم في الدين .

ثالثاً : أن مجرد كونه اصطلاحاً فلا مشاحة فيه لا يصح لأنه ترتب عليه فساد ففيه مشاحة فهو الأساس الذي بنى عليه أهل وحدة الوجود مذهبهم فما لزم منه الباطل ليكون باطلًا .

رابعاً : أن هذا المسلك لا يخرج عن معنى الربوبية وهو لا يكفي في دخول الإسلام فضلًا عن أن يكون أفضل الأحوال .

خامساً : وقد أشار ابن تيمية إلى المفاسد المترتبة على القول بالفناء وهي :

أولًا : تساوي الحوادث عند القائل به فلا فرق بين طاعة ومعصية ولا بين مؤمن ولا كافر وهو باطل إذ لابد لكل حي أن يفرق بين ماينفعه ويضره وبين مايؤلمه ومالا يؤلمه وبين الخبز والتراب وبين الماء والشراب ونحو ذلك[1] .

ثانياً : أنهم لم يفرقوا بين الشرع والقدر إذ الشرع يقتضي الفرق بين ما يأمر الله به وبين ما ينهى عنه وبين أعداء الله وأحبائه وأما القدر فكل الموجودات نسبتهم إليه سواء[1] .

---

(١) شذرات البلاتين (٢٤٦/١ وما بعدها) . انظر مدارج السالكين (٣٧٨/٣ ، ٣٧٩) الرسالة التدمرية النفائس ص(٧٧ ، ٧٨) .

ثالثاً : وقوع كثير منهم في المعاصي والفسوق والكفر لعدم تفريقهم بين هذه المعاني بل جوز بعضهم عبادة الأصنام بناء على ذلك(١) .

رابعاً : إن عدم التفريق ممتنع عقلًا وشرعاً فإن لم يفرق بين الأمر المحبوب والمبغوض شرعاً فإنه لابد أن يفرق بينهما بالفرق الطبيعي فيحب مايهوى ويكره مالا يهوى(١) .

والحق في الفناء أن يقال أن الفناء بثلاثة أنواع :(١)

أولًا : الفناء بالشاهد عن المشهود وبالذكر عن المذكور وهو الفناء في توحيد الربوبية هو بعض التوحيد المطلوب بشرط الفرق بين مايشاهد والمشاهد والذكر والمذكور وهو ليس من لزوم الطريق إلى الله .

ثانياً : الفناء بعبادته عن عبادة غيره وطاعته عن طاعة غيره وامتثال أمره واجتناب نهيه وهو توحيد الألوهية وهو أعظم الفناء وأجله وأوجبه .

ثالثاً : الفناء عن وجود السوي وهو فناء أهل وحدة الوجود وأهل الحلول والاتحاد وهو باطل عقلًا وشرعاً .

عاشراً : القول بسقوط التكاليف يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (وقد قال بعض الناس أنه تجوهر وهذا قول قوم داموا على الرياضة مدة فقالوا لا نبالي بما عملنا بعد ذلك وإنما الأمر والنهي رسم للعوام ولو تجوهروا مثلنا لسقط عنهم وحاصل القيود ترجع إلى الحكمة والمصلحة والمراد فيها ضبط العوام ولسنا من العوام فندخل في التكاليف لأنا قد تجوهرنا وعرفنا الحكمة فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى بل هم أكفر أهل الأرض فإن اليهود

---

(١) شذرات البلاتين (٢٤٦/١ وما بعدها) . انظر مدارج السالكين (٣٧٨/٣ ، ٣٧٩) الرسالة التدمرية النفائس ص(٧٧ ، ٧٨) .

والنصارى آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض وهؤلاء كفروا بالجميع فهم خارجون عن التزام شيء من الحق)[1] .

وقد قال ابن عربي :

العبد رب والرب عبد ياليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب أنى يكلّف[1]

فلما صار عنده عين وجود الرب هو عين وجود العبد صار كل واحد عنده هو عين الآخر وإذا كان الرب لا تكليف عليه والرب هو العبد فالعبد أيضاً لا تكليف عليه .

ومن الصوفية من يسقط عن نفسه بعض التكاليف دون البعض الآخر فيزعم مثلًا أن الصلاة سقطت عنه لأنه وصل إلى المقصود الذي من أجله شرعت الصلاة وبالتالي فهي لا تجب عليه بعد الوصول ، وبعضهم يزعم أن الصلاة سقطت عنه وقت المشاهدة وبعضهم يزعم سقوط الحج عنه ومنهم من يزعم أنه استغنى بالتوبة والحضور عن سائر العبادات والطاعات ومنهم من يستحل المحرمات كالفطر في رمضان من غير عذر ويستحل شرب الخمر ويزعم أنها لا تحرم إلا على العوام دون الخواص وذلك لزكاة نفوسهم وصلاح أعمالهم .

هذا وقد أجمعت الأمة على كفر من جحد واجباً من الواجبات الظاهرة المتواترة أو جحد تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة كالخبز واللحم والنكاح[2] .

---

(١) انظر مختصر الفتاوى المصرية (٢٤٥) .

(٢) انظر مختصر الفتاوى المصرية (٢٤٦) .

(وقد قيل لبعض الصوفية قم إلى الصلاة فقال :

يطالب بالأوراد من كان غافلًا   وكيف بقلب كل أوقاته ورد[١]

قال ابن القيم رحمه الله (وهؤلاء أعظم كفراً والحاداً حيث عطلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة والتي هي أماني النفس وخداع الشيطان وكأن قائلهم إنما عني نفسه وذوي مذهبه بقوله :

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم   وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

فهم في السرىٰ لم يبرحوا من مكانهم   وما ظعنوا في السير عنه وقد كلو[٢]

وبعد فأين هؤلاء من قوله سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[٣] أي الموت .ومن قوله عن صفوة عباده ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾[٤] وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾[٥]

ولقد كان رسول الله ﷺ يعبد ربه حتى تفطرت قدماه فيقال له : ارفق بنفسك فيقول أفلا أكون عبداً شكوراً . بل أين هؤلاء من أصحاب رسول الله ﷺ وأحوالهم في التعبد كما قال سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ ﴾[٦] وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٧] وقال آمراً عباده بعبادته : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾[٨]

(١) انظر ابن القيم عصره ومنهجه ص(٤١٩) .
(٢) انظر مدارج السالكين (٣/١١٨ ، ١١٩) .
(٣) سورة الحجر آية (٩٩) .
(٤) سورة الأنعام آية (٥٢) .
(٥) سورة الليل الآيتان (١٩ ، ٢٠) .
(٦) سورة الفتح الآية (٢٩) .
(٧) سورة العنكبوت الآية (٦٩) .
(٨) سورة النساء الآية (٣٦) .

بل إن شيوخ الصوفية أنفسهم صرحوا بوجوب اتباع الكتاب والسنة والعمل بهما .

يقول ابن القيم رحمه الله : (وقد صرح أهل الاستقامة وأئمة الطريق بكفر هؤلاء فأخرجوهم من الإسلام وقالوا لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة أي ما دام قادراً عليه)[1] . ومن ذلك قول الجنيد بن محمد : (علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ) وقال ابراهيم بن محمد النصرابادي : (أصل هذا المذهب ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع والتمسك بالأئمة والاقتداء بالسلف وترك ما أحدثه المتأخرون والمقام على سلك الأولين) .

وسئل إسماعيل بن نجيد ما الذي لابد للعبد منه فقال : (ملازمة العبودية والسنة ودوام المراقبة وسئل عن التصوف فقال هو الصبر تحت الأمر والنهي) . وقال أحمد بن أبي الحواري : من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله وقال عبدالله الخياط : (الناس قبل رسول الله ﷺ كانوا على ما يقع في قلوبهم فجاء النبي ﷺ فردهم من القلب إلى الدين والشريعة)[1] .

الحادي عشر : التفرقة بين الحقيقة والشريعة .

فالشريعة عندهم هي مراعاة الأمر والنهي فيما يظهر من أحوال العباد وأما الحقيقة فهي شهود الحقيقة الكونية في القلب ومما يدل على ذلك قولهم (الشريعة فيها طاعة ومعصية والحقيقة فيها طاعة ومعصية والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية)[2] .

---

(١) مدارج السالكين (٣/١١٨ ، ١١٩) ـ انظر العبودية لابن تيمية ص(٦٥) وما بعدها .
(٢) العبودية (١٤٣) .

ومنهم من يدعي أن الحاجة للنبي ﷺ هو في علم الظاهر دون الباطن أو في علم الشريعة دون الحقيقة[1] وهم يصفون أنفسهم بأنهم ذووا الحقائق ويصفون العلماء بذوي الشرائع أو بأنهم أصحاب الباطن والعلماء أصحاب الظاهر . وبناء على ذلك فطريقهم هو الأفضل والأكمل من طريق الفقهاء والعلماء، وإن مما علم من الدين بالضرورة أن حقيقة مافي قلوب العباد لا يعلمه إلا الله وادعاء الكمال فيه تزكية قد نهى الله عنها بقوله : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2] .

كما أن الأعمال الظاهرة مطلوبة شرعاً كالأعمال الباطنة سواء بسواء فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة (السلف الصالح) قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك الارتباط بقوله : «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» وقال ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» . ولا يدخل العبد في الإسلام إلا بالنطق بالشهادتين مع الإيمان بالقلب ويدل عليه قول النبي ﷺ لمعاذ «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» . ولما قتل أسامة بن زيد رجلاً بعدما نطق بالشهادة قال له ﷺ : «أشققت عن قلبه» وقال ﷺ عن الصلاة : «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» وقال عن تصديق الكاهن : «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وكلها أعمال ظاهرة مما يدل على أن العلم بما جاء به الرسول أمر قد علم وجوبه بالضرورة من دين الإسلام كما قال سبحانه :

(١) الفرقان لابن تيمية ص(٧٣، ٧٤) ـ انظر مدارج السالكين (٣٧٢/٢) .
(٢) سورة النجم آية (٣٢) .

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1] وقال سبحانه : ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[2] وقال جل شأنه : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]

قال ابن تيمية : (فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا غيرهم أن يخرج عنه ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فلم يتبعه باطناً وظاهراً فهو كافر)[4] .

وليس في قصة موسى مع الخضر ما يدل على جواز الخروج عن شرع رسول الله ﷺ وذلك لوجوه :[4]

أولًا : أن موسى لم يكن مبعوثاً للخضر ولا كان على الخضر اتباعه .

ثانياً : أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى وإنما أنكره موسى لعدم علمه بالأسباب فلما علمها وافق الخضر على ذلك[4] .

ثالثاً : أنه لو صح كون الخضر تابعاً لموسى وأن الخضر خالفه لكان ذلك خاصاً بشريعة موسى دون شريعة محمد ﷺ .

رابعاً : أنه لو قيل بناء على ذلك أن شرع من قبلنا شرع لنا قلنا هذا إذا وافق شرعنا وهو لم يوافق فلا يكون شرعاً لنا .

خامساً : أنه لو جاز ذلك في شريعة موسى مع أن بعدها رسالات لم يجز ذلك في شريعة محمد ﷺ لأنه خاتم النبيين ولذا إذا أنزل الله عيسى فإنه يحكم بما أنزل على محمد ﷺ لا على شريعته السابقة .

---

(١) سورة الحشر آية (٧) .

(٢) سورة المائدة آية (٩٢) .

(٣) سورة النور آية (٦٣) .

(٤) انظر الفرقان لابن تيمية ص(١١٠ ، ١١١) .

هذا والواجب على المؤمن أن يجمع بين سلامة الظاهر وجمال الباطن ، بين الحكم بأحكام الشرع والتقيد بها ظاهراً وبين أحوال القلب الإيمانية والتقييد بأحكام الشرع . يقول ابن القيم رحمه الله شارحاً لعبارة صاحب المنازل (فالسالكون ضربان : سالكون على الحال ملتفتون إلى العلم وهم إلى التمكن أقرب وسالكون على العلم ملتفتون إلى الحال وهم إلى التلون أقرب)[1] .

وقال : (وهذه الثلاثة هي المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال حتى كأنهما غيران وحزبان وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرى ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه) وهذا تقصير من الفريقين حيث ضعفت احداهما عن السير في العلم وضعف الأخرى عن الحال في العلم فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم فأخذ هؤلاء العلم وسعته ونوره ورجحوه وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه ورجحوه وصار الصادق الضعيف من الفريقين يسير بأحدهما ملتفتاً إلى الآخر فهذا مطيع الحال وهذا مطيع العلم لكن المطيع للحال ما عساه أن يكون والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعاً منقوصاً مشتغلًا بالوسيلة عن الغاية وصاحب التمكين يتصرف علمه في حاله فلا يدعه أن يقف معه بل يدعوه إلى غاية العلم ويلبي دعوته ، فهذا حال الكمل من هذه الأمة ومن استقرأ أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك)[1] .

الثاني عشر : الاحتجاج بالقدر على فعل المحظورات يقول ابن تيمية : (وقوم آمنوا بالقضاء والقدر ووافقوا أهل السنة والجماعة على أنه ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه لكن عارضوا بهذا الأمر والنهي وسموا هذا حقيقة وجعلو ذلك معارضاً للشريعة .

---

(١) انظر مدارج السالكين (٣/١٣٤ ، ١٣٥)، انظر الفرقان لابن تيمية ص(٥١) .

وفيهم من يقول إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب وأن العارف يستوي عنده هذا وهذا وهم في ذلك متناقضون مخالفون للشرع والعقل والذوق والوجد فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم، ولا يسوون بين العالم والجاهل والقادر والعاجز، ولا بين الطيب والخبيث ولا بين العادل والظالم بل يفرقون بينهم ويفرقون أيضاً بين موجب أهوائهم وأغراضهم لا بموجب الأمر والنهي فلا يقفون لا مع القدر ولا مع الأمر بل كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق مذهبك تمذهبت به(١).

وهذا المذهب مردود بما يلي:

أولًا: أنه يلزمه إذا احتج بالقدر على المحظور أن يجوز احتجاج غيره به إذا آذاه أو أساء إليه فلا يطالبه بعقوبة وهو مالا يفعله.

ثانياً: أن هذا القول مستلزم لفساد العالم وتضارب المجتمع وانتشار الشر لأنه يتضمن رفع العقوبات عن المجرمين والظالمين وإباحة الأعراض والأموال والأنفس وهذا لازم باطل فما بني عليه فهو باطل.

ثالثاً: أن مما علم بالضرورة من دين الإسلام انقسام أفعال العباد إلى طاعة ومعصية، وإلى ماينفع ومايضر، ومعروف ومنكر، وإلى طيبات وخبائث وإلى متابع للشرع ومخالف له، ولو صح قوله لصح أن يجعل كل ما جرى به القدر عذراً وهو باطل فما لزم منه ذلك فهو باطل.

رابعاً: فإن ادعى أن يعذر بالقدر من شهده دون غيره قيل له إن الشهود والجحود من القدر هو متناول لهما فإن أوجبت فرقا بينهما فقد أبطلت قولك من أصله.

---

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل (١/٧٢ ـ ٧٥).

خامساً : أن من احتج على الذنوب بالقدر فهو من جنس عمل الشرك حيث قال الله عنهم : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾[1] .

سادساً : لو كان القدر حجة لما عذب الله المشركين المكذبين للرسل لكنه عذبهم فلا يكون القدر حجة على الذنوب[2] .

سابعاً : أن في الاحتجاج بالقدر تسوية بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشرك بل بين الطاعة والمعصية ونحو ذلك قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[3] وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[4] وقال : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[5] .

ثامناً : أن في ذلك نسبة الظلم وعدم الحكمة لرب العالمين كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[6] وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[7] .

تاسعاً : أن ذلك تعطيل للأمر والنهي وإضعاف لتعظيمهما في النفوس والله يقول : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[8] .

عاشراً : ان لازمه التسوية بين جميع الأديان يهودية ونصرانية ووثنية

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٨ .

(٢) انظر الفرقان ص(١٠٤ ، ١٠٥) انظر العبودية لابن تيمية ص(٥٢ ، ٥٦) .

(٣) سورة القلم آية ٣٥ .

(٤) سورة ص آية ٢٨ .

(٥) سورة الجاثية آية ٢١ .

(٦) سورة المؤمنون آية ١١٥ .

(٧) سورة القيامة آية ٣٦ .

(٨) سورة الحج آية ٣٢ .

وإسلام وهو باطل فما لزم منه فهو باطل ولذا وجد في هؤلاء من يجوز التعبد بأي دين[1] .

الحادي عشر : أن أولياء الله وأعداء الله في الولاء سواء وهو باطل فما بني عليه فهو باطل[2] .

دعوى ابن عربي أن أصحاب النار يتنعمون في النار كما يتنعم أصحاب الجنة في الجنة وإنما سمي العذاب عذاباً من العذوبة وهي حلاوة الطعم وأنشد في الفصول :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده	وما لوجود الحق عين تعاين
فإن دخلوا دار الشقاء فإنهم	على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد	وبينهما عند التجلى تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه	وذاك له كالقشر والقشر صاين

وتصور هذا القول يغني عن الرد عليه لظهور فساده[3] .

الرابع عشر : أن خاتم الأولياء أعظم وأعلم بالله من خاتم الأنبياء وأن خاتم الأنبياء وسائر الأنبياء يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء وتصوره يكفي في معرفة فساده .

الخامس عشر : أنه يمكن أن يأتي في المتأخرين أفضل من أبي بكر وعمر كما ذكره الترمذي الحكيم في كتابه خاتم الأولياء[4] .

السادس عشر : أن الملائكة عبارة عن الصور الخيالية التى تحصل في نفس النبي نتيجة لما أفاضه العقل الفعال على نفسه وأن حقيقة الوحي إلى

---

(١) انظر الصفدية لابن تيمية (٦٢٨/١) .

(٢) انظر الفرقان ص(١٠٤ ، ١٠٥) انظر العبودية لابن تيمية ص(٥٢ ، ٥٦) .

(٣) انظر الصفدية (٢٤٥/١ ، ٢٤٦) الفرقان ص(٨٣) . (٤) انظر الصفدية (٢٤٧/١) .

النبي هو مايتخيله النبي حال الإفاضة من أصوات يسمعها فما يسمعه لا يكون خارج نفسه وأما خاتم الأولياء فهو يأخذها من المعدن الذي يأخذ منه الملك المبلغ للنبي[١] .

السابع عشر : أن النبوة أفضل من الرسالة وأن الولي أفضل من الرسول يقول ابن عربي :

مقـــام النبـــــوة في برزخ فويــق الرســول ودون الولي

يقول ابن القيم : (وهذا قلب للحقيقية التي اتفق عليها المسلمون وهو أن الرسول أفضل من النبي الذي ليس برسول والنبي أفضل من الولي الذي ليس بنبي .

والرسالة تنتظم النبوة والولاية كما أن النبوة تنتظم الولاية وأن أفضل الأولياء أكملهم تلقياً عن الأنبياء وهو أبو بكر الصديق فإنه أفضل من عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وعمر كان كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر» فعمر كان محدثاً ملهماً وهو أفضل المحدثين من هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس وليس في أولياء هذه الأمة من يأخذ عن الله سبحانه وتعالى شيئاً بلا واسطة نبي أفضل من عمر ومع ذلك فكل مايرد عليه بدون وساطة النبي عليه أن يعتبره بما جاء به النبي ﷺ فإن وافقه قبله وإن خالفه رده كما كان يفعل عمر بن الخطاب فإن كان إذا وقع له شيء جاءت السنة بخلافه ترك ماعنده لما جاءت به السنة)[٢] .

ومما تقدم لنا من العقائد يظهر مدى ماوصل إليه التصوف عند

(١) انظر الصفدية (٢٤٩/١) .

(٢) انظر الصفدية (٢٥٢/١ ، ٢٥٣) .

المتأخرين من انحراف فكري جعل التصوف يجمع عدداً من العقائد والأفكار الهدامة التي تعتبر معول هدم لأصول الإسلام وقواعده مما يوجب علينا أن نتابع الصوفية في جميع منعطفاتها محذرين منها ومظهرين مافي عقائدها من مخالفة صريحة لأصول العقائد الإسلامية، الأمر الذي يتطلب جهداً كبيراً من البحث والمتابعة يقول ابن تيمية رحمه الله: (واعلم أن هذه المقالات لا أعرفها لأحد من الأمة قبل هؤلاء على هذا الوجه ولكن رأيت في بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله أن الوجود واحد ورد ذلك وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئة)[1].

الصوفية والبدع

البدع هي شرع ما لم يشرعه الله قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[2] وأصل الدين الحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله وليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

هذا والمشروع التقرب إلى الله بما شرعه من الصلاة والصدقة والقراءة فهذه أصول العبادات المشروعة فمن تقرب إلى الله بما يخرج عن هذه الأصول فهو مبتدع شارع ما لم يأذن به الله[4] والواجب أن يكون المتقرب

---

(١) مجموع الرسائل والمسائل (٤/٢٤).

(٢) سورة الشورى آية ٢١.

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٣. وانظر مجموع الفتاوى (١٠/٣٨٨ ـ ٣٩١).

(٤) انظر الاعتصام للشاطبي (١/٢٨٦).

به جامعاً للموافقة للشرع في أصله بأن يرجع إلى أصول العبادة المتقدمة وفي وصفه بأن يثبت بالنقل عن الرسول ﷺ فعله أو أمره أو اقراره لهيئة العبادة وشكلها كيفاً وعدداً وهيئة وإلا كانت من البدع المنهي عنها شرعاً . قال الرسول ﷺ : «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» فليس لأحد أن يشرع ما استحسنه هواه أو وافق طبعه . قال رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وبناء على ذلك فإن الصوفية قد ظهرت عليهم أفعال وأقوال واعتقادات لم يأذن الله بها ولا رسوله ولا كان سلف الأمة عليها مما جعل التصوف بريداً للبدعة وإليك جملًا مما ابتدعوه :[1]

أولًا : صلاة ركعتين بعد لبس المرقعة والتوبة .

ثانياً : تركهم للجمع والجماعات والمساجد وسكناهم للأربطة .

ثالثاً : الهيمان في البراري والقفار مما يعرضهم للهلكة وترك الصلوات مع المسلمين .

رابعاً : تركهم للمطاعم والمشارب الطيبة بدعوى الزهادة .

خامساً : الاعتماد على الصدقات وترك العمل والسعي في سبيل الرزق الحلال بدعوى الثقة بالله والتوكل عليه وإنما هو التواكل .

سادساً : لبسهم المرقعات من الملابس مع امكانهم لبس الطيب منها ظناً منهم أن ذلك هو الزهد المشروع .

سابعاً : تعبدهم بلبس الصوف والتزامه دون غيره من اللباس .

ثامناً : اظهار الملامية منهم ما يلامون عليه عند الناس طلباً للاخلاص .

(١) انظر تلبيس إبليس (١٧٤ ـ ٣٣٠) .

تاسعاً : تعبدهم باستماع الغناء والرقص والخلوة بالمردان من الصبية وتقبيلهم .

عاشراً : إباحتهم النظر إلى الامرد والخلوة به بل والنوم معه على فراش واحد بدعوى أنه من التفكر في خلق الله .

الحادي عشر : تركهم للنكاح بدعوى أنه يشغل عن العبادة وابتلوا بصحبة المردان .

الثاني عشر : ترك التداوي بدعوى أنه ينافي التوكل على الله .

الثالث عشر : الدعاوي العريضة في محبة الله الذي يدخل في مسمى تزكية النفس فضلًا عن الرياء والسمعة وطلب الشهرة .

الرابع عشر : تركهم للعلم والتعلم بدعوى أن العبرة بالباطن والعلم علاقته بالظاهر وقد تقدم ما يدل على مافيه من الخطأ والخلط .

الخامس عشر : الغلو في الصالحين إلى درجة الاستغاثة بهم والاستجارة بهم والذبح لهم وهو من الشرك الأكبر .

السادس عشر : إقامة الأعياد والموالد لشيوخهم وأكابر من يدعون ولايته .

السابع عشر : دعواهم أن الذكر المفرد أفضل من الذكر المركب وأنه ذكر الخواص .

ويحتج بعضهم بقوله سبحانه :﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾[1] ظناً منه أنه أمر نبيه بالذكر المفرد وهو مردود لأن معنى الآية قل الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ويدل عليه أول الآية وهي قوله سبحانه : ﴿ قُلۡ مَنۡ

(١) سورة الأنعام آية ٩١ .

﴿ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾[1] أي الـــذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى .

ولو كان الذكر المفرد أفضل لكان الرسول ﷺ أولى الناس به وهو الذي عبد ربه حتى تفطرت قدماه ولأمر أمته به وكما قال لهم « من كان آخر كلامه لا إلٰه إلا الله دخل الجنة » وكما قال : « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر » فهو صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالذكر المفرد ولا في حديث واحد .

وأما قوله لا تقوم الساعة حتى لا يوجد من يقول الله الله المراد به يقول لا إلٰه إلا الله أو حتى لا يبقى لله ذكر بينهم لانتشار الشرك في شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة ثم الذكر المفرد لا يدل على إيمان أو كفر فما معنى أن يقول الله أوحي ونحو ذلك مالذي أثبته لله أو نفاه عنه حتى يكون ذكراً فضلًا عن أن يكون من ذكر الخواص وقد غلا بعضهم فقال إن ذكر خواص الخواص هو لفظ هو ، أنا ، والف كتاباً سماه كتاب (الهو) وهو شرع مالم يأذن به الله وهو قول ابن عربي وأهل الاتحاد[2] .

قال ابن تيمية : (والمقصود هنا أن المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة وهو المسمى بالكلام والواحد منه بالكلمة هو الذي ينفع القلوب ويحصل به الثواب والأجر ويجذب القلوب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له فضلًا عن أن يكون من ذكر

---

(١) سورة الأنعام آية (٩١) .

(٢) انظر العبودية لابن تيمية ص(١٥٧)، مجموع الفتاوى (٣٩٦/١٠) .

الخاصة والعارفين بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات وأحوال فاسدة من أحوال أهل الالحاد وأهل الاتحاد[1] .

الثامن عشر : التعبد بالجوع والسهر والصمت .

ومن هذا السرد العددي لعدد من البدع الصوفية يظهر مدى التلازم بين دين الصوفية والبدع سواء كانت مخرجة عن دين الله أو مخالفة لما ثبت عن سيد المرسلين ﷺ وإن لم تخرج صاحبها من الإسلام .

هذا ومازالت البلاد الإسلامية التي ينتشر فيها التصوف ترزح تحت وطأة البدع والمبتدعين من الصوفية الذين هيئوا للبدع والمبتدعين طريقهم بين عامة المسلمين مما يظهر لنا مدى خطر التصوف وطرقه على تغيير دين المسلمين لأن البدع إذا انتشرت غيرت وجه الدين حتى يعود مجموعة من الطقوس التي لا تمت إلى دين الله بصلة وصدق الله حيث قال : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[2] ولو لم يكن للصوفية من أثر بدعي إلا توهين أمر الجهاد في سبيل الله وصرف الناس عن تعلم الدين وفهمه لكفاه خطراً وشراً .

صلة التصوف بالأفكار الهدامة :

إن المستقريء لما عليه المتصوفة من العقائد والأفكار ليدرك من خلال ذلك مدى الصلة الوثيقة بين التصوف وبين تلك الأفكار الهدامة ، ويتبين لنا من سرد بعض نقاط اللقاء بين التصوف وتلك الأفكار :

أولًا : للتصوف صلة وثيقة بالتشيع فإن المتبع لأفكار الصوفية يجد التشابه الشديد بين شيوخ الصوفية وأئمة الشيعة من جهة تلك الامتيازات

(١) انظر العبودية لابن تيمية ص(١٥٧)، مجموع الفتاوى (١٠/٣٩٩) .
(٢) سورة المائدة الآية ٥٠ .

التي يضفيها كل من الشيعة والصوفية على أولئك الشيوخ والأئمة لا سيما وأن الطرق الصوفية تجدها في غالب طرقها تسوق أسانيدها إلى على بن أبي طالب وفاطمة الزهراء أو ذريتهما بل لقد رأيت بالبحث أن جُمُلًا من رجالات الصوفية كأحمد البدوي وأبي الحسن الشاذلي قد نشأ في مهد التشيع وبين الشيعة مما لا يدع مجالًا للشك في أن للتصوف صلة وثيقة قوية بالتشيع[1] .

ثانياً : أن للتصوف صلة قوية بمذهب الباطنية[2] ويدل على ذلك أمران :

الأول : اعتماد الصوفية على الأحوال الباطنة دون الأمور الظاهرة بل إن بعضهم ليسقط حساب الظاهر وذلك باسقاط التكاليف الشرعية .

الأمر الثاني : تلك التفسيرات الصوفية الباطنية الفكر كقول بعضهم في قوله تعالى : ﴿**بما كنتم تدرسون**﴾ أي تهلكون ومعناها الحق بما كنتم تتلونه وتقرؤنه وقال بعضهم في قوله : ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب**﴾ أي لمن كان الله قلبه .

وقال بعضهم في قوله : ﴿**وأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم**﴾ قال الروح النظر إلى وجه الله عز وجل والريحان الاستماع لكلامه وجنة نعيم هو أن لا يحتجب فيها عن الله عز وجل[3] .

ثالثاً : التأثر بأقوال النصارى فالقول بالحلول الخاص هو قول

---

(١) السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة ص(٢٤ وما بعدها) ص(٣٧ ، ٤٩ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٨١) .

(٢) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص(٨٢٨ وما بعدها) .

(٣) انظر تلبيس إبليس (٣٣١) .

النسطورية منهم والقول بالاتحاد الخاص قول اليعقوبية منهم وبكل قول من هذه الأقوال قالت طائفة من طوائف الصوفية من أهل الوحدة والاتحاد[١] .

رابعاً : التأثر بأقوال فلاسفة اليونان كتأثر بعض الصوفية بقول من قال من فلاسفة اليونان بأن الوجود واحد[١] .

خامساً : تأثرهم بالجهمية في قولهم بالحلول العام وهو عين قول الجهمية حيث يقولون أنه بذاته في كل مكان[١] .

سادساً : أن التصوف منتشر بين اليهود وتسمى (التنبؤ) ويسمى الواصل من السالكين عندهم نبياً ويسمى شيخها صوفياً وتسمى مراكزها (المسفايات) واحدة (مسفاً مما يؤكد على وجود صلة بين هذه التسمية ورسومها وطقوسها وما عليه الصوفية اليهودية[٢] .

سابعاً : أن الهندوسية تقوم على أسس إشراقية كالخلوة والجوع والسهر والصمت مما يدل على وجود صلة وثيقة بين الهندوسية والتصوف من جهة التشابه بينه وبينها[٢] .

---

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ٢٤) .

(٢) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية (٧٤٩ ، ٧٥٠) .

خاتمة البحث

وبهذا العرض السريع للتصوف وعقائد المتصوفة وأحوالهم التعبدية يظهر لنا أن كلمة تصوف أطلقت على عدد من العقائد والأفكار بعضها صحيح وهو منحصر في كبار شيوخهم السلفيين في اعتقادهم ، وبعضها الآخر بدعي كالصوفية المنتسبين للأشعرية ، وبعضها كفر وزندقة وهم صوفية وحدة الوجود ، مما يجعلنا بحاجة عندما نحكم على مسمى هذا الاسم بعد الاصطلاح للاستفسار عما يدخل تحته من مذهب عقدي أو تعبدي وهو مقتضى العدل في نظري لأني رأيت أكثر من يكتب عن التصوف إما يميل إلى أن يجفوا فيحكم بالبدعية وربما بالزندقة على أوائلهم وأواخرهم ومنهم من يغلو فيزكي الأول والآخر والعدل هو الوسط الذي هو سمة هذه الأمة المحمدية قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ وهذا والصوفيون المعاصرون لا يخرجون عن ما عليه الصوفية المتأخرون من العقائد والأفكار فهم صوفية طرقية جارية على الطرق قبلهم ، وان كانت الطرق الصوفية أخذت جانباً جديداً وهو الجانب الحزبي وذلك بإنشاء مشيخة للطرق الصوفية في الأزهر ومجلس أعلى عالمي في لندن وصاروا يستفيدون من معطيات عصرهم في نشر تصوفهم ، بل إن الاستعمار واليهودية العالمية بجميع منظماتها لتسعى لنشر التصوف والعناية به لأن ذلك يخمد نار الغيرة الإسلامية في نفوس المسلمين ويقضي على الدافع الجهادي في نفوسهم ومن ثم استسلامهم للواقع المر والتبعية للشرق والغرب الكافرين ، نسأل الله أن ينصر الحق وأهله ويخذل الباطل وأهله إنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .